

الجنة أحاديث الرسول

صلى الله عليه وسلم

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد المجيد عيسى أبو النضر

شيخ كلية اللغة العربية



القاهرة

(١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار النجباء للكتاب العربي
ميسى البابي الحلبي وشركاه



اَجْنَهَاتُ بَنِي إِسْرَافِيلَ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

حقوق الطبع محفوظه للمؤلف

دارالحياء الكائنات العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الاهدا

إلى من أعر الله به الإسلام ، عمر بن الخطاب ! .
روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بن الخطاب رضى الله
عنه بلغه أن قوماً يأبون الشجرة^(١) فيصلون عندها فوعدهم رضى الله عنه
ثم أمر بقطعها فقطعت .

قال الحافظ ابن الجبر : و بيان الحكمة في إحراقها هو أن لا يحصل بها
افتتان لما وقع تحتها من الخير . ولو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما
أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر ، كما رآه الآن مشاهداً فيما هو دوسها .
هذا بذر قلبل من جلائل أعمال الفاروق رضى الله عنه التي يحافظ بها
على أهم أصل من أصول الإسلام . وهو إفراد الله وحده بالتقديس والعبادة .

فإلى روح هذا الصحابي الجليل ، والمرشد الحكيم ، والقائد البصير أهدى
رسالتى هذه . وأرجو الله أن ينفع بها كما نفع بصنيع الفاروق قبلها ، وأن يقي
المسلمين شر الوقوع فيما وقع فيه من كان قبلهم ! .
إنه وحده ولى التوفيق والهداية إلى سواء السبيل .

[١] التي حصلت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية ، وحاء ذكرها في القرآن (لقد رضى
الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . . .) آية ١٨ من سورة الفتح .

مُفَتِّدِيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد حاتم النبيين الأمين وعلى
إخوانه الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن كل من اطلع على كتاب الله الكريم، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه
وسلم ، يدرك في وضوح عمايتيها عقيدة « التوحيد » ، وحرصهما الشديد على
إفراد الله بالكمال في عالم الوجود، واستحقاقه وحده دون غيره من الموجودات
تقدس المخلوقين له، وعبادتهم إياه . ولتفرده في الكمال كانت ذاته الحق وقوله
الوحي لا يشوبه خطأ ولا وهم .

وقد ظل رسوله صلى الله عليه وسلم يحاهد حل حياته التريفة في سبيل
عقيدة التوحيد حتى أرسى أصولها، ودعم بناءها، وأحاطها بسياج قوى من قوله
وعمله . ولم يشغله شاغل عنها طول حياته، ولم يصرفه عن بذكر المؤمنين والناس
بها كافة أى صارف مهما عظم شأنه ، وأخذ من نفسه مأخذاً قويا . ذلك أن
في عقيدة التوحيد وحمل البشر على عمادة إله واحد أولى دلائل الصدف على أن
صاحب الدعوة بها رسول الله حقاً، وعلى أن الدين القائم عليها دين الله صدقاً .
فما كانت قدسه التريفة أيام سيطرة الجهل والبدائية عليها من آلهة متعددة
لم يكن إلا وليد المصادفة أو انقياداً لعصية تتصل بالبيئة أو الجنس بصلة .

وما كان التمرّك بعد إرسال رسل الله إلا نتيجة لعناد الإنسان أو غروره، أو حرص بعض الناس على استغلال البعض الآخر من يتملكه ضعف الشخصية أو يستهويه بعض متع الدنيا .

وكانت دعوة التوحيد اشارة صدق الداعى إليها على أنه رسول الله، ودليل صدق الدين المؤسس عليها على أنه دين الله، لما ينطوى عليه من جملة مظاهر :
أولاً — أن الداعى لذلك على هذا النحو لا يطلب لنفسه ميزة خاصة غير أنه رسول الله . ولا يطلب لنفسه تقديساً من التابعين لدعوته ، كما لا يطلب لقوله فى غير حدود الرسالة التى أمر بتبليغها إلى الخلق عصمة مطلقة ، ولتصرفاته فى غير دائرة هذه الرسالة تنزيهاً عاماً .

فعماية الداعى متركرة فى بليع رسالة الله ، ليس له وراء هذا التبليغ مطمع شخصى ، ولا هدف يحلب من تحقّقه له زحرف الحياة الدنيا من حاه أو مال أو سلطان .

وثانياً — أن حمل الجماعة البشرية على الاعتقاد بآله واحد هو صاحب التدبير المطلق فى الوجود ، وعلى قصر العبادة عليه ، والطاعة له رفع لهذه الجماعة من ظلمة حرافات المصادفة وأساطير الزعماء

الإسانيين فيها . وتوحيه شديد لها في الحياة ، تعمل في كون
الله طمق وطرنه التي فطر الناس عليها، لا عائق من حهل بالواقع
أو من تغرير إسان يحول بينها وبين أن تهمدى بنور الله
في عالمه .

وثالثاً — أن هذا الاعتقاد نفسه يؤدي إلى شعور الفرد المؤمن بحريته
الفردية، وكرامته الإنسانية، في حدود وصايا الله من أوامرونهاى .
ووصايا الله الرب المعبود وحده، الكامل كلاً مطلقاً، لا تنطوى
إلا على حير الفرد وحير الجماعة .

ورسالة الله الحقبة نتجه إداً إلى تعريف الأمداد نقيمهم الدانية وكراماتهم
الشخصية، ودفع استغلال الناس بعضهم لبعض . وذلك لا يكون إلا عن طريق
نقل التقديس والعمودية من دائرة الإنسان وعالمه إلى من هو أرفع من الإنسان ،
ومن عالمه إلى الذى خلقه فسواه ، وبالتالى عن طريق خلق روح المساواة
بالكرامة الإنسانية في الجماعة البشرية .

ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان رسول الله حقاً لم يستهوه أن يرى
من المؤمنين به وبدعوه نوعاً من الإكبار لشخصه يسمو به عن مرلة
الإنسان . وعدم انقياده لذلك كان وفيّاً لدينه، ولكتابه الكريم، وآياته التى
ينطق بعضها بقول الله العظيم : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِنَّمَا

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(١)»، كما كان بذلك أيضاً محارباً في نفسه أمراً غزياً في الإنسان هو الميل إلى الظهور.

وكان يمتق هذا الإكبار غير العادي لشخصه، ويدعو إلى تجنبه، خشية أن يؤدي إلى تفرقة في دين الله تنفذ منها إلى هذا الدين الخفيف ما نفذ منها من قبل إلى دين عيسى عليه السلام مما حرج رسالته عن أن تكون رسالة الله الخالدة.

لذلك نصر عليه السلام أمته بأمر هذه الثغرة، وحذر وشدد في التحذير من أن يجز تعظيمه إلى الوقوع في الشرك.

دخل عليه يوماً رجل يرجب خوفاً، وهم بالوقوع على قدميه صلى الله عليه وسلم. فقال له: رويدك يا هذا! إنما أنا بشر، أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد^(٢).

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم! إنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله». قال ابن حجر: وسبب قوله صلى الله عليه وسلم هذا ما وقع من معاذ ابن جبل، فقد روى أحمد في مسنده عن معاذ ابن جبل أنه لما رجع

[١] سورة الكهف، آية ١١٠.

[٢] اللحم المجفف يحفظ ليؤكل عند عدم وجود الطرى. يريد أنها كانت غير مترفة

من اليمن قال يا رسول الله : رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض ، أفلا يسجد لك ؟ .

وكتيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يكرر قوله : « إنما أنا بشر » كلما شعر بمبالغة المؤمنين في تعظيمه . ولم يشغله عن التمنية على حطر ما تؤدى إليه هذه المبالغة شاغل ما . وكيف يشغله شاغل عن ذلك وهو رسول الله . لا ينبغي إلا أن يعيش في حدود الرسالة لله . ونطاقها لا يحتمل تعظيم موجود آخر سواه ؛ ربما يؤول تعظيمه إلى الاعتقاد بمساواته به جل جلاله حتى في سكرات الموت كان يؤكد شريته ، ويحدد تبعاً لذلك منزلته من الله الواحد الذى لا رب غيره . روى مسلم عن حذوب بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قمل أن يموت خميس يقول : « إن من كان قلسكم كابوا يتخذون فموراً أبنياًهم وصالحهم مساحد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد . إني أنهيكم عن ذلك » وفى رواية البخارى عن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبوراً أبنياًهم مساجد » ، محذر ما صنعوا .

[١] بالنساء للأعزل والماعل محذوف أى الموت والمراد مقدمانه . وفى رواية بالنساء للمعول ويكون نائب الماعل الجار والمحذور .

ذلك حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع نفسه إزاء ربه وجماعة المؤمنين به . لم يدع شائبة عموض تعتور علاقته بخالقه . فوضح أنه رسول الله ومع ذلك هو إنسان . لا يسمو به اختيار الله له إلى أن تصير له قدسية الله وعظمته وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤَيَّيَّهَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَامُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّحِدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » (١) من آيات رسالته التي حملها للناس كافة . وكما أكد هذه العلاقة في حياته السريفة طاب أن يرعاها المسلمون بعده حتى لا يكون مصيرهم مصير النصارى واليهود الذين استحقوا لعنة الله بسب ما حرفوا في دين الله مما يتعلق بمنزلة أنبياءهم فاتخذوا قبورهم أمكنة للعبادة .

لكن المؤمنون نأى دين من الأديان لا يبقى إيمانهم به على حال واحدة ولا فهمهم له على غلط واحد .

ولو بقي إيمان الجماعة على حال واحدة وفهمها للدين على غلط لا يتغير لما احتاج دين الله إلى رسل يأتي الواحد منهم إثر الواحد ، ولما احتاج دين حاتم

الأنبياء والمرسلين إلى تحديد الدعوة إليه كما نصح القرآن الكريم بقوله :
« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ » ^(١) .

الدين في أساسه واحد لا يتغير . وأفهام المؤمنين به فيه هي التي تتبدل
وتتغير ، حسب العوامل التي بوحى بذلك من نبتة ثقافية ، واجتماعية ومواطن
جغرافية . إلى غير ذلك مما يؤثر في اختلاف الناس واختلاف ميولهم وانحازاتهم .
وقد يُنكر الدين في أساسه فهم بعض المؤمنين به لمبادئه أو لمهمته الرئيسية إذا
اتسعت الفجوة بينهما . ومقياس ذلك أن يبدو انحراف هذا الفهم عن أصول
الدين التي بشرها رسول الدين وأتباعه الذين صاحبوه في الحن وصحبوا بأنفسهم
وأموالهم وأولادهم في سبيل نصرته وإعزازه .

فالمسلمون الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم ،
ويرون أن الدنيا والآخرة من فصل حوده صلى الله عليه وسلم ، أو يعتقدون أنه
كان يعلم كل ما كان وما يكون ، يعكسون آية رسالته ويضعونه فوق
الرسول ويشبهونه بالله أو يجعلونه شريكاً له . وليس ذلك مما دعا إليه
الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد منزلته كما أمره ربه . وليس ذلك
مما يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَى

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .

لكن هذا الذى يتنافى مع مثل هذه الآبة الكريمة آمن به بعض المسلمين اليوم وبالأمس وربما فى العد أيضاً . وإيمانهم به لا يزيد فى قدسية الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب، بل يجعل لقوله وعمله العصمة حتى ما كان منهما خارجاً عن دائرة رسالة ربه . ويصبح محمد بن عبد الله بناء على ذلك ليس ذلك الإنسان المصطفى الذى كلف رسالة الله بل يؤول أمره إلى ما آكل إليه أمر عيسى ابن مريم حين ما نظر إليه بعض أتباعه على أنه إنسان حلت فيه روح الإله وأن له طبيعة فوق طبيعة الإنسان؛ له طبيعة الإله والإنسان معاً . فصورته الظاهرة صورة إنسان، وما كان وراءها يرجع إلى الله ويتفرع عنه . وكانت هذه النظرة إلى عيسى سبب تقديسه فقاليه من مسيحي القرن الرابع الميلادى كما كانت سبباً فى أن عُد الاتحاض المسبحى الذى ينصح بها تحريفاً للمسيحية التى هى دين الله لأن دين الله لا يدعو إلى عبادة غير الله ولا يمنح العصمة إلا لله .

ومن الدعوة إلى الخير التى طلبها القرآن الكريم أن يكون فى كل جيل إنسانى من يبين لخاصة المؤمنين قبل عامتهم أهداف الإسلام الرئيسية . وفى

مقدمتها علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالله جل جلاله . وتحديد هذه العلاقة بالذات كما جاء بها القرآن كانت من الآيات الواضحة كما أسلفنا على أن الإسلام دين الله الحق لا دخل للإنسان فيه . ووجودها واضحة في حيل من أحيال المسلمين أمانة على أهم لم ينحرفوا عن الإسلام الذي هو دين الله . كما أن وجودها مشوهة في حيل آخر علامة على أن هذا الحيل له من الإسلام اسمه محسوب .

لهذا حرصت على أن أتناول حائلاً من جواب هذه العلاقة في حدود ما جاء به القرآن وصح من الحديث الشريف . هذا الجانب هو قول الرسول وعمره خارج دائرة الرسالة الإلهية . لأؤكد ما أكدته الإسلام الذي هو دين الله من أن محمد بن عبد الله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فيما وراء الرسالة كان إنساناً . وله العصمة فيما أرسل به للناس من قبل الله من وحى مملوء وغير مملوء ، وله حكم الإنسان المحتهد فيما أتى به من قول أو فعل بعد ذلك .

وسأعرض إلى أن هذا الشأن لنيننا الكريم كان شأن الأنبياء والرسل السابقين لا يختلف في شيء عنه . لأن الوضع عند الجميع سواء . كلهم رسل الله وكلهم أناسي من مخلوقات الله احتيروا في أزمنة محتلمة وفي أحيال متعددة

لأداء رسالة الله الواحدة الخالدة التي لا تختلف في زمن عنها في زمن آخر ولا في حيل عنها في حيل آخر « قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاوِنَ الرُّسُلِ . . » ^(١).

وهذا الازدواج في النظرة إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه في نفوس المؤمنين بدينه . فلم يرل هو الإنسان المصطفى وليس بالإنسان العادى كرمه ربه باختياره لأداء رسالته، فكرمه المؤمنون به لماله من منزلة خاصة عند الله . لسكن من حمة أخرى من حق الله عليه وعلى المؤمنين به أن يعرفوا حدود هذه المنزلة، فلا يشركوه مع الله في درجة واحدة عن طريق إغفال المعنى الإنسانى فيه

فالرسول صلى الله عليه وسلم إذا أضيف إلى الخلق كان في السماكين وكان الجميع يذب على سطح هذه الغبراء . وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفصل عليه كان بشرا ككل البشر حاصعاً لقوة القاهر الغالب الذى احتص بالكمال وحده .

والله الموفق والمعين

القاهرة في { صفر سنة ١٣٦٨
ديسمبر سنة ١٩٤٨ }
عبد الجليل عيسى أبو النصر

البَابُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول

الاجتهاد مظهر من مظاهر الإنسانية في الرسول :

هناك عدة مظاهر تم عن إنسانية من يختاره الله لرسالته ، وندل على أن اصطفاؤه لأداء هذه المهمة القدسية لا يحرجه عن طبيعة الإنسان ، يجوز عليه ما يجوز على أى إنسان آخر فيما عدا ما كلفه الله بتبليغه للناس .

فهو يأتى كل قبل الرسالة وبعدها كما بأتى كل الإنسان ، وبنسل قبل الرسالة وبعدها كما بنسل الإنسان^(١) ، ويدفع عن نفسه ضرر الجوع واعتداء المعتدى بوسيلة أو أخرى من الوسائل التى اعتاد أن يسلكها الإنسان فى دفع الضرر ودفع الاعتداء عنه . يحترف ويتجر على نحو ما يحترف الإنسان ؛ يتجر لتأمين عيشه وعيش من يعوله . يقاوم المعتدى ويهاجمه إن ظن الغلبة عليه ، ويمهله إلى حين حتى يستطيع رده نسخصه أو عن طريق جمع من أعوانه .

ناضل فى الحياة ويكافح من أجل هدفه فيها ، ويتخير لنضاله وكفاحه ما يتخيره العاقل المتروى من الإنسان . يسلك لإقناع الغير سبيل الإقناع حسما ينبجلى له من نفسه ودحيلة أمره ، ويسلك لمحاربة المعاند من خصومه وأعدائه طريق الحرب حسما تتطلب الظروف والمواطن .

[١] فى رواية البخارى : « إني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأنروح الدساء . . . »

ولم يشأ الله أن يخرجـه عن طبيعة الإنسان وخصائصه لأنه أراد ، حسب ما في علمه ، أن يكون رسوله المصطفى لتبليغ رسالته في جيل أو في أمة أو للناس كافة . والله تعالى قادر على أن يخرجـه عن هذه الطبيعة ويمنحه من الوسائل في الحياة والكفاح فيها ما ليست للإنسان . لكنه شاء حل حلاله أن يبقى رسوله للناس من الناس ؛ لا يتحول بالرسالة من إنسان إلى ملك فضلا عن أن يصل بها إلى مرتبة فوق مرتبة الرسالة والملك . .

وهذا قول الله جل جلاله حكاية عن نوح عليه السلام في رده على قومه لما قالوا له : « مَا رَأَاكَ إِلَّا تَشْرَا مِثْلَنَا » : « لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ »^(١) . وقوله تعالى لنبيينا عليه الصلاة والسلام : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ... »^(٢) .

وقد تعنتت كمار قريش مع نبيينا صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه ما بدل على أنهم معاندون ، وقالوا : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ حَنَّةٌ مِنْ هَيْحَلٍ وَعِنَبٍ فَتَفْجُرَ الْأَهَارَ حِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَمًا ، أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ، أَوْ تَرْفِقَ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُفْقَيْكَ حَتَّى مُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ، قُل : سُبْحَانَ رَبِّيَ ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا نَسْرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالَّذِي إِذْ حَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَلَمَتْ اللَّهُ بُشْرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونُ مُعْظَمِينَ لَرَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَآكِلًا رَسُولًا ^(١) .

وهكذا عاش الأنبياء والرسل أناسى وماتوا أناسى . كلهم احترف فى سبيل عيشه ، وكلهم ناضل من أجل عقيدته ، وكلهم اجتهد فى تحييد وسبيلة العيش وطريق النضال ، وكلهم أخطأ وأصاب فى اجتهداه فيما تحييد من وسائل وطرق لعبشيه وكفاحه ^(٢) .

وفى موتهم جاز عليهم ما جاز على الإنسان . نعم فى غمرات الموت كانوا يتشوفون إلى لقيا الله تعالى أكثر من حنينهم للدينا وما فيها . ذلك لأنهم ركروا إيمانهم فيما وراء الدينا بحكم اختيارهم للرسالة ، وإيمانهم إيماناً كاملاً بها . وهكذا الإنسان لا يأسف على ما فات ان قوى أمليه بما هوأت .

وربما فى عيشهم وكفاحهم كانوا أخرج إلى الاجتهاد وإعمال العقل

[١] الآيات من ٩٠ - ٩٥ سورة الاسراء .

[٢] والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اعمر لى خطيئتي وجهلى وما أت أعلم به مى . اللهم اعقر لى هزلى وحدى ، وخطيئى وعدى ، وكل ذلك عدى » .

أكثر من غيرهم . لأن الأنبياء - وكذا المصلحين في الجماعة - أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق الماران العقلى . لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت في حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات . ولا يكفى في سرعة البت هذه حسنُ استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته . فكم في النيفاف ورعوس الجبال وبطون الأودية من خصوصية عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلى أو قلة الدربة في معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية أُلزم للرسول - وكذا للمصلح - أكثر من غيره لا نجد بين من احناهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب .

وكلمهم من أحل عيشهم احترفوا لأهم لم يكونوا من أصحاب اليسار . وربما تشابهوا جميعاً في مزاوله حرفة بالذات : فكثير منهم نساءً بتيماً أو شبه يتيم ، وكثير منهم قد رعى الغنم ، وبعضهم عمل عند غير أهله أجيراً يأكل من أجره .

وقد تجشم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم طويلاً الأسفار للتجارة في

مال غيره بأجر ، وذاق مرارة اليتيم ، وحرّم حنو الوالد ، فألبسه كل أولئك من دروع العظمة أقواها ، ومن فضائل الرجولة أعلاها ، وسمت به نفسه عن مواطن الترهل والمعومة ، فتساقبت إليه أسباب الفضائل وتجمعت لديه عناصر الزعامة وأخصبت عبقريته وفتحت لإلهام السماء مشاعره ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

من الميسور للرجل أن يستغنى عن الاجتهاد ، وأن ننزوى في ناحية من نواحي الحياة غير متعرض لتياراتها المختلفة : فمن الميسور أن يتواري الرجل في جوف صومعة منقطعا للتبتل والعبادة حتى يلتقى الله ، ومن الميسور أن ينقطع للدنيا ويوليها جميع عنايته ، ويعطيها كل نفسه لا يسعى إلّا لها ولا يفكر إلا في جمعها معرضا عن الآخرة لا يشعر بها ولا يعرف من أنشأها أحداً .

كما أنه من الميسور أيضاً أن يعمش الرجل في هذه الحياة لا يهدف إلى عاية ولا يسعى إلى غرض طافيا فوق نيارانها تقذف به مع الرمح حيث دارت وكفها اتجهت ، فتارة تراه عابداً مع العباد ، وتارة فاسفاً مع الفساق ، وتارة عطوفاً خيراً ، وأخرى حباراً عتياً . وتارة يهمل في جمع المال ، وأخرى يفرق في السرف والتبذير . فكل فعل من أفعاله يصدر عنه بلا تفكير ولا روية . هتل هذا إن لم يكن مجنوناً فهو أشبه بالمجانين .

كل هذا ميسور . أما أن يحوض الرجل غمار هذه الحياة ويأخذ من كل ناحية من نواحيها طرف ، فيعطى ربه حقه ، ونفسه حقها ، وبنى جنسه حقوقهم ، يعاشر الناس ويخالطهم ويعاملهم ، يجمال ويواسى ، ويقاطع ويخاصم ، ويهادن ويحارب ، كل فى حدود المصلحة العامة والعدل والعقل ، وهو فى كل ذلك سَلِمَ له دينه وعرضه ، فهذا ما لا يقدر عليه إلا القليل النادر ولا يستطيعه إلا أحد رجلين :

١ — رجل ألقى بنفسه بين يدى ملك الوحي ، يحرره كيف شاء ، وأنى شاء . يرسم له الطريق ويخطو به كل خطوة ، ويسلك به دقيق المسالك وشعاب السبل . ومثل هذا لا يحتاج فى حياته إلى عبقرية ولا فكر ، بل ولا إلى عقل . وهذا ما نزه عنه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

٢ — أو رحل أعطى من قوة الذهن وشدة الفطنة ويقظة القلب وعبقرية الفهم ما سهل عليه أن يجتهد ويصع كل شئ فى محله وأن يستعمل كل شئ عند ظهور دواعيه . وهذا مقام الأنبياء والمرسلين والمصلحين .

فمن اصطفاهم الله حاصوا الحياة فى جميع نواحيها وعالجوا كل صعابها وفكروا وقدروا . وان وقعت من بعضهم فى طرئ ذلك هنات فذلك من مقتضيات طبيعة البشر ، للفرق بين الرب والمرئى والإله والمألوه . إذ العصمة لا تكون إلا لله وحده .

ونحن نعلم لهذا أنه لا يكفي ليكون الرجل فائداً مصلحاً في كل ضرب من ضروب الحياة أن تكون حسن السيرة تقياً ورعاً فحسب ، بل لابد أن يكون قوى الفكر سريع البديهة ، قوى الحجة صارم المريمة شديد الشكبة في تنفيذ الحق ، فطنا يقظاً حذراً لا يتخددع .

فكثير من الصحابة عرفوا بالصلاح والتقوى ولم تعرف عنهم قوة الجلال والحجاج والحذر : منهم أبو موسى الأشعري رضى الله عنه . فقد كان ورعاً تقياً صالحاً حاشعاً ، ومع ذلك مكره عمرو بن العاص وهدعه في التحكيم حتى ظفر به وغلبه .

ومهم أبو هريرة رضى الله عنه . قد كان عادداً حافظاً ولكن لم يبرر اسمه في عداد شجعان الصحابة ولا ذوى الرأي النافذ فيهم . روى البخارى عن الأعرج قال : قال أبو هريرة : « انى كنت امراً مسكيناً أصعب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى » . وفي رواية قال : « قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ قد ردت على ثلاثين فأثقت معه حتى مات ، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه وأعزوه معه وأحجج » . وقال محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجرة عائشة فيقال محنون ومابى جنون ، ومابى إلا

الجوع». وأخرج البغوى عن الأعشى قال : «ما كان أبوهريرة أفصل الأصحاب ولكنه كان أحفظهم » .

ومهم عبد الله بن عمر . وهو المعروف بالصلاح والورع وكثرة العبادة حتى أنه كتبه ، ومع ذلك لما طعن والدؤه رضى الله عنه وذكره فيمن يؤخذ رأيهم فيمن يكون خليفة بعده ، قال لهم : حذوا رأيي ولا يكون هو الخليفة .

ومهم حسان بن ثابت فقد روى ابن كثير في تاريخه : قال عباد بن عبد الله بن الزبير : كانت صفية بنت عبد المطلب يوم الخندق في حصن قالت : وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان ثم بنا رجل من يهود جعل يطيف بالحصن ورسول الله والمسلمون في محور العدو لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا ، فقلت : يا حسان ! إن هذا اليهودى كما تراه يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورننا من وراءه من اليهود ، فانزل إليه واقتله ! قال : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت : فلما قال ذلك أحدث عمودا ثم برئت من الحصن إليه فضرته بالعمود حتى قتلتته ، ثم رجعت إلى الحصن وقلت : يا حسان ! انزل فاستلبه ، فانه لم يمعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لي سلبه حاجة يا بنت عبد المطلب .

وإد تطلبت صعب الحياة ومشاكلها على كثرتها من الرسل عليهم الصلاة والسلام حدة الذهن وإعمال العقل والاجتهاد في تخير الرأي الصائب كان من الحكمة الإلهية أن وهب الله لرسله سلامة الجسم ، كما منحهم سلامة العقل حتى يستطيعوا عن طريق القوة الدنية المتأثرة في التغلب على الصعاب وإيجاد حلول لمشاكل الحياة .

وقد كان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله جميعاً ذوي أجسام صحيحة وأبدان معافاة سليمة . وربما كان لحرفهم التي زاولوها في حياتهم قبل البعثة والتسكيب بتبليغ رسالة الله دخل في صحة أجسامهم ومعافاة أبدانهم . وربما كان احترافهم بها من توحى الله لهم . فقد رعى معظمهم الغنم^(١) أو زاول حرفة أخرى^(٢) . ولا شك أن في رعى الغنم أو مزاول الحرفة درنة على

[١] روى البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم . فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم . كنت أراها على قرابيط لأهل مكة » . وروى النسائي من حديث نصر بن حزن قال : « افترأ أهل الإبل وأهل الغنم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعث أنا وأنا راعى غنم أهلي » .

[٢] روى البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده » . قال الحافظ بن حجر : « وحاء عن ابن عباس : أن داود كان زراداً ، وكان آدم حرثاً ، وكان نوح بحاراً ، وكان إدريس حياطاً ، وكان موسى راعياً » . قال الخطابي : إن الله لم يصنع النبوة في أبناء الدنيا والمتربين منهم ، وإنما جعلها في أهل النواصع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف .

الصبر على العمل مهما عظم أو شق على النفس^(١) ، كما يجهز إلى الاستخفاف
بالمسكاره والاقدام عند الفزع^(٢) .

[١] روى البخارى عن البراء بن عازب قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يوم
الأحزاب يقل من تراب الخندق حتى وارى عى العمار حلدة بطنه » . وروى البخارى أيضاً
عن جابر بن عبد الله قال : كما يوم الخندق محفر فعرصت لنا كبدية شديدة (قطعة حجر
صلبة لا يعمل فيها المعول) فأحروه صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أنا نارل ، ثم قام وبطنه
معصوب بحجر وكسا لثنا ثلاثة أيام لا بدوق دواقاً فأحد صلى الله عليه وسلم المعول فصر به
في الكبدية فعاد كثيراً أهيل » .

[٢] روى البخارى عن أنس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع
الناس ، ولقد فرع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم صلى الله عليه وسلم وقد
تحقق الخبر ، وهو على فرس عرى ، ما عليه سرح ، وفى عنقه السيف وهو يقول :
لم تراعوا ، لم تراعوا » .

الفصل الثاني

رأى بعض العلماء في جواز اجتهاد الأنبياء :

رأبنا أن نقدم بين بدى تفصيل الكلام على اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم جملة من أقوال كبار العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم في اجتهاد الأنبياء عليهم صلوات الله . ومما يقين للقارىء أن الذين ينكرون اجتهاد الأنبياء إنما يعمصون أعينهم ويستغشون نيامهم حتى لا تتحطف أبصارهم هذه الأدلة القاطعة التي لا يصمد أمام صولتها لراحة معاند ولا مكارة جاحد .

ولدى من منع الاجتهاد عن الأنبياء من أمثال أبي على الجبائى وابنه أبى هاشم دليل امتار بكثرة دورانه على أسنة الناس . وهو فى واقع الأمر ليس بدليل . وهذا الدليل هو التمسك بقوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ^(١)... » . فقد افتطع الجبائى هذه الآية عن سابقتها ولاحقها ، وقذف بها فى آذان الناس . فصارت تلوكها ألسنتهم بدون فكر ولا روية . والعجيب أنا كثيراً ما نسمع من يستدل بها حتى الآن من بين طلاب العلم والعلماء .

[١] آية ٣ من سورة النجم .

وإذا قطعنا النظر عن أن سياق الآيات يدل كما فهم كبار المحققين على أن الكلام في القرآن وان المراد أن هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد ليس من عنده ، بل هو وحي يوحى إليه من الله ، نقول : إذا قطعنا النظر عن كل ذلك فإيا بقول لكم : ما ذا تريدون . « ما ينطق عن الهوى » ؟ أتريدون أنه صلى الله عليه وسلم لا يلفظ بقول مطلقا في أى جزئية إلا وحي . حتى قوله : كيف أنت يا فلان ، أو أين ذاهب ، أو مزاحه مع زوجته ، أو حادمه ، أو قوله : أبا عطشان أو جوعان ، أو اسقنى مثلاً . إن قلتم إن كل هذا وحي خاص ، قلنا لكم قد سقط الخطاب معكم .

وإن أردتم أنه لا ينطق عن الهوى بمعنى أنه لا يقول عن شهوة وغرض بل ما يقوله لمصلحة ، قلنا نحن معكم في هذا . ولكن لا يفيدكم في منع الاجتهاد . لأن الاجتهاد لا يصدر منه إلا نحت اعتقاد أنه مصلحة . وإن ظهر خلاف ذلك فهو معذور .

وإن أردتم أنه لا ينطق عن هوى بمعنى أنه أوحى إليه بأنه يحتج ، فاجتهاده بإذن ، قلنا لكم ونحن نقول بذلك . ولا مانع حينئذ من أن يحتج ولا يصيب في حريته . لأنه لا تلازم بين الإذن في الاجتهاد وبين الإصانة في كل حرثية ، كما أنه لا تلازم بين الأمر بالصلاة وبين وقوعها كما أمر الله ، بل قد يعتريه فيها السهو فيصلى الرباعية مثلاً خمسا .

وإن قلتم إن المراد ما ينطق عن الهوى في الأمور الشرعية فقط ، أى ما يكون فعله لها يعتبر تشريعاً مرغباً فيه ، قلنا لكم : وهل أخرجتم من أعماله الشرعية سوى خصوصياته كنكاح ما فوق الأربع ، وسوى جبليانه كالخوع والعطش ، والصحة والمرض . أما ما عدا ذلك من أقواله وأفعاله وسكونه فكل ذلك أدخلتموه في أعماله التشريعية ، فقلتم : يُسنّ لنا أن نرحى في غطاء الرأس عذبة ، كما كان صلى الله عليه وسلم يفعل . وقلتم عند ما نقل عنه في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قبّل ابنه إبراهيم وسمه - : وفي الحديث مشروعية تقبيل الوالد لولده وسمه . وقلتم - لما صلى الله عليه وسلم توبه - : يؤخذ من الحديث مشروعية نكاح المرأة توبه . فهل كل ما كان من هذا النوع - وهو لا يعد ولا يحصى ولا يخالو عنه صلى الله عليه وسلم في حل حياته الشريفة - بوحى ؟ . أظن أنه لا نقول بذلك عاقل .

رأى ابن حزم :

وابن حزم في كتابه « العِصَل في الملل والأهواء والنحل » يقول :

« قد يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وأنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا أصلاً . بل ينهمهم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده . ورعاً عاتهم على ذلك

بالكلام ، كما فعل مع نبينا صلى الله عليه وسلم في أمر « زَيْنَب » ^(١) ، وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاشهم بعض المكروه في الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام .

والأنبياء عليهم السلام بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به وجه الله فلم يصادف مراده تعالى ، بل نحن مأجورون على هذا أجراً واحداً ... ثم ذكر عن آدم قوله تعالى : « فَمَعَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » ^(٢) وقوله : « وَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب . ثم قال : وهذا وقع منه عن قصد إلى حلاف ما أمر به متأولاً في ذلك ولا يدري أنه عاص ؛ بل كان ظاناً أن الأمر للبدب مسلاً أو النهى للكرهية . وهذا شيء يقع فيه العلماء والعقهاء كثيراً . وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ، ويؤاخذون به إذا وقع منهم .

ثم قال : وقال لنوح : « فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَمْ يَكُ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » ^(٣) لأن بوحاً ظن أن ابنه من أهله ، وأن المراد أهل القرابة . فلما علم أن هذا ليس مراداً ندم ، وليس هنا نعمة لمصيبة .

[١] قصة زينب واس أم مكتوم سيأتى تفصيلها بعد . [٢] آية ١٢١ سورة طه .

[٣] آية ٤١ سورة هود .

وقال (الله) في يوس : [وَدَا الثُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] ^(١) .

وقال (الله) لنيننا صلى الله عليه وسلم : [فَاضْرُ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ يَدَارِكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لُمَدِّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ] ^(٢) . ثم قال (صاحب الفصل) : إنه عاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوب بذلك ، وإن كان ظاناً أن هذا ليس عليه فيه شيء . وهذا هو ما أراد الله من نيننا صلى الله عليه وسلم حين نهاه عن مغاصبة قومه ، وأمره بالصبر على أداهم . وأما إخبار الله بأنه استحق الدم والملامة لولا النعمة التي يداركها للث معاقباً في بطن الحوت ، فهو - كما هو ما نقرر آنفاً - من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظلمونه حيراً إذ لم يوافق مراد الله . وعلى هذا الوجه أقر يوس عليه السلام على نفسه بأنه كان من الظالمين . ^(٣)

[١] آية ٨٧ سورة الأنداء .

[٢] آية ٤٨ ، ٤٩ سورة نون

[٣] ملخص من كتاب « الفصل في الملل والأهواء والحل » ج ٤ ص ٢

طبعة صليح سنة ١٣٤٧ هـ .

رأى ابن تيمية :

وابن تيمية يرى أن « الأبناء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ رسالته باتفاق الأمة . بخلاف غير الأنبياء فإنهم غير معصومين ، ولو كانوا أولياء الله » .

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالتبليغ فللماس فيه نزاع : والقول الذي عليه جمهور الناس — وهو الموافق للمنقول عن السلف — إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والدوب مطلقاً .

واحتج من قال إنه لا يقع من الأنبياء ذنوب بأن التأسى بهم مشروع . وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم عن الذنب . وأحيب بأن التأسى مشروع فيما أقروا عليه دون ما هموا عنه ، كما أن أمر الله ونهيه إنما تجب طاعته فيما لم ينسخ منه ، أما ما نسخ منه فلا يكون مأموراً به فصلاً عن وجوب طاعته^(١) .

[١] ونقول أيضاً لا راع بينا وبينكم في أن التأسى به صلى الله عليه وسلم في الصلاة مشروع بل واجب ، ومع ذلك يقع منه السهو والسيان ويراجع في سهوه ويصحح =

احتجوا أيضاً بأن الدروب تنافى الكمال وأنها توجب التنفير ، وبحو هذا من الحجج العقلية . وردَّ بأن هذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد النوبة حيراً منه قبل الخطيئة ، وكان يواسى بعد حروجه من بطن الحوت وتوته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع . قال تعالى : [فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوبِ إِذْ بَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ، لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لُنِيدَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاحْتَبَاهُ رَبُّهُ فجعله مِنَ الصَّالِحِينَ] . وهذه الحال الأخير بخلاف حال التمام الحوت ، فإنه قال فيه : [فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ] فأحبر سبحانه أنه في تلك الحال ملیم . والملیم هو الذي فعل ما يلام عليه ، فكان حاله بعد قوله : [لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنْى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان . والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى في البداية . والأعمال بخوابيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئاً ، ثم علمه فنقله من حال النقص الى حال الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما

= ما سها عنه ، فلم لا يكون الخطأ في الاحتاد كوقوع السهو في العباد والكل يذبه صلى الله عليه وسلم عليه ؟ . روى البخارى عن ابن مسعود — عد ما سها صلى الله عليه وسلم في الصلاة وذكره — أنه قال : [لو حدث شيء في الصلاة لسألتكم به ، ولكن إنما أشر مثلكم أسى كما تسون ، فإذا سئيت فذكرونى] .

وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال الكمال . وبوس وعيره من
الأنبياء صلوات الله عليهم في حال النهاية في أكمل الأحوال .

وقد كان هذا حال الأنبياء دائماً مادرون إلى التوبة والاستغفار عند
المهفوة . والقرآن شاهد عدل

فيها هو ذا لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة
والاستغفار . كقول آدم وزوجه : [رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] . وقول نوح : [رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ]
وقول الحليل : [وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ] . وقول
موسى : [رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي] . وقوله : [وَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَانَكَ تُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ] وقوله تعالى في داود : [فَاسْتَغْفِرْ
رَبَّهُ وَحَرَّ رَأْيَا وَأَنْابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَرُفْقًا وَحُسْنُ
مَآبٍ] . . . إلى غير ذلك .

والذين لا يقولون بصدور مخالف عن الأنبياء نأولوا كل ذلك بمثل

تأويلات الجهمية^(١) والقدرية^(٢) لنصوص الصفات والمعاد . وهى من جنس
تأويلات الباطنية^(٣) والفرامطة^(٤) التى يُعلم بالضرورة أنها باطلة وأنها من
باب تحريف الكلم عن مواضعه

وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في سكدهم ، ويريد الإيمان
بهم فيقع في الكفر بهم .

ثم إن العصمة للمعومة بدليل الشرع ، والعقل ، والإجماع ، وهى العصمة فى
التبليغ لم ينفعوا بها إذا كانوا لا يقرون بموجب ما بلّغته الأنبياء . ومن هنا
غلط من غلط فى تفصيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فاتهم واعتبروا كمال
الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا . ولو اعتبروا حال الأنبياء

[١] أصحاب حزم بن صفوان ، قالوا : لا قدرة للعبد ، والله لا يعلم الشئ قبل وقوعه
وعلمه حادث لافى فعل ، ولا يتصف بما يتصف به غيره كالعلم والقدرة . ويسمون المعطلة
أيضا . فالمعطلة والجهمية فرقة واحدة .

[٢] القدرية هم المعتزلة ، ولموا ذلك لأهم أسدوا أعمال العباد إلى قدرهم ويلقبون
بأصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوحوب « الصلاح » وبى الصفات القديمة .

[٣] فرقة من فرق الشيعة ، ويسمون أيضا الإسماعيلية . وسماوا باطية لقولهم باطن
الكتاب دون ظاهره . ولقبوا بالإسماعيلية لأنسابهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر ووقعهم
بالإمامة عليه .

[٤] لقبوا بذلك لأن أولهم الداعى إلى المذهب ، وهو حمدان قرمط ، طهر بالكوفة
سنة ٢٧٠ هـ . ومن رعيهم أن لا غسل من الحماة ، وأن الخمر حلال ، وأن الحج إلى
بيت المقدس

والصالحين بعد الكمال ورضى الرحمن ودحول الجنان ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم مما صرتم فنعيم عقبي الدار ، لرحموا عن حظهم .

وما يظنه بعض الناس من أن من ولد على الإسلام فلم تكفر قط أفصل ممن كان كافراً فأسلم ، ليس بصواب . بل الاعتبار بالعاقبة ، فأيهما كان أبقى في عاقبته كان أفصل . إذ من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بعد كفرهم أفصل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم . وكان عمر بن الخطاب وحالد بن الوليد رضى الله عنهما من أشد الناس على الإسلام ومع ذلك لما أسلما تقدما من سبقهما في الاسلام ، لما ظهر منهما من كمال الجهاد للكمفار والانتصار لله ورسوله . وذلك يبين أن الاعتمار كمال النهاية لا بنقص البداية . وقد ورد أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح العاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمرك إذا وحده بعد بأس

من ظن أن صاحب التوبة النصوح يكون ناقصاً فقد غلط غلطاً عظيماً . فان الدم والعقاب الذى يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب مهما شئء أصلا . لكن إن أسرع بالتوبة لم يلحقه شئء ، وإن أحر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنب والتوبة ما تناسب حاله من الذم والعقاب .

والأبداء صلوات الله عليهم كانوا لا يفرحون التوبة ، بل يسارعون إليها ولا يصبرون على الذنب ، بل هم مغمضومون من ذلك . ومن أحر ذلك زمناً يسيراً كفر الله عنه ذلك ، مما ينجليه به . كما فعل بذي النون على المشهور من أن إلقاءه كان بعد التوبة . أما إذا كان قبلها فلا يحتاج إلى ذلك . وبخصوص السكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة . لكن المنازعون يتأولونها كتباً وبيانات الماطنية ، كما تقدم . وتأويلاتهم ظاهرة الفساد لمن تدرها . فهي من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

من ذلك تأويلهم قوله تعالى : [لِيَعْمَرَ اللَّهُ لَكَ مَا قَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا أَخَّرَ] ^(١) . فالوا : المراد ذنب أمك . وذلك باطل من وجوه :

١ - قوله تعالى : [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ] ^(٢) . وقال : [فإِذَا عَلَيْهِ مَا لُمُوتٍ وَعَلَيْكُمْ مَا لُمْتُمْ] ^(٣) .

٢ - أنه قد ميز بين ذنبه صلى الله عليه وسلم وذنب أمته ، بقوله : [وَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] ^(٤) . فكيف يعد ذنب المؤمنين ذنباً له ؟ .

٣ - أن هذه الآية لما رلت هم بعض الصحابة بالتشديد على أنفسهم بعدم قربان النساء والصيام دائماً تقرباً لله بذلك . فلما علم بذلك

[١] آية ١ سورة الفتح [٢] آية ٣٨ سورة المدثر [٣] آية ٥٤ سورة البور

[٤] آية ١٩ سورة محمد

صلى الله عليه وسلم غصب ، وقال : [إني أفوم ، وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأنزج النساء . فمن رغب عن سنني فليس مني ! فقالوا : إنا لسنا مثلك نارسول الله ، فان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : إن انتقامكم وأعلمكم بالله أنا . أفلا أكون عبداً شكوراً ؟] ^(١) .

فدل هذا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعلمون أن قوله تعالى : [لِيَعْرِفَ لَكَ . . .] . خاص به دون أمته . وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : [اللهم اعمر لي حظي ووجهي وما أنت أعلم به مني . اللهم اعمر لي هزلي وجدي ، وحظي وعمدي ، وكل ذلك عندي] . وأخرج الصحيحان أن آية الفتح رأت مَرَحَهُ صلى الله عليه وسلم من الحديدية . فقال صلى الله عليه وسلم : [لقد زلت على الليلة آية أحب إلى مما بك . فما يفعل بنا ؟] . فبرأت : [ايدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار . . . حتى بلع هوراً عظيماً] . وروى البخاري عن المغيرة : [كان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تورم قدماه أو ساقاه . فقبل : لم هذا وقد غفر لك ؟ . فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟] .

[١] في رواية البخاري .

فكل هذه الرويات الصحيحة الصريحة تدل على بطلان قول من رأى
أن الذنب المغفور ذنب أمته . ولكنه التعصب للرأى واللجاجة فى غير
الحق « (١) .

رأى القاضى عياضى :

قال القاضى عياض فى « الشفاء » (٢) :

١ - « وأما أحواله فى أمور الدنيا فقد يعتقد صلى الله عليه وسلم التى ءمها على
وجهه ويظهر خلافه . (أى يظهر أنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر (٣)) . ثم
ذكر حديث نأير النحل المروى عن مسلم والذى سيأتى تفصيل الكلام فيه .
وفى آخره قال صلى الله عليه وسلم : إماما أنا لتسر ، إذا أمر بكم شىء من
دينكم فخذوا به ، وإذا أمر بكم شىء من رأى فأبوا أنا لتسر . قال شارح
الشفاء ، أى قد أرى الرأى فى أمور الدنيا والأمر بخلافه ، فلا يحب إمامه .
ثم ذكر رواية مسلم الأخرى التى فيها : [إماما ظننت ظمًا فلا يؤاخذونى
بالظن] .

[١] فتاوى ابن بيمية ، ج ٢ ص ٢٨٣ طبع كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

[٢] ج ٤ من ص ٢٦٥ طبع المطبعة الأثرية المصرية سنة ١٣٢٧ هـ .

[٣] تعليق شهاب الدين الحفاجى .

ويحكي عن ابن رشد أنه في كتاب « التحصيل والبيان » يذكر أن هذا الحديث - يشير لحديث مسلم في تأييد النخل - روى باللفاظ محتملة ، متقاربة بمعنى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : [ما أنا بزارع ولا صاحب نخل] . وعلق أنوليد^(١) بقوله : إنه صلى الله عليه وسلم بين أنه لا تأثير في الصلاح والفساد لغير الله تعالى ، إلا أن الله تعالى قد يجري العادة بأسباب تعلم بالتجربة ، كالتأثير . وهو صلى الله عليه وسلم لم يسبق له تجربة فيه . وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : [إنا أنا بشر ، فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنا أنا بشر أخطئ وأصيب] .

والخفاحي تارح السماء - بعد أن ذكر حادثة نزول المسلمين بأدى مباح برر التي سيأتي سرحها ، ومعارضة الحجاب بن المنذر وقوله : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : [بل هو الحرب والرأي .. الخ] . فأشار الحجاب بمنزل آخر . فقال صلى الله عليه وسلم : [أشرت بالرأي الصائب] وفعل ما قاله الحجاب - علق بقوله : إن العرب أدري بالحروب ، لأهمم جربوها وفاسوا شدائدتها .

ويستطرد - القاضي عياض - في ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم في

[١] لقب بن رشد .

أمور الدنيا ، فيروى حادثة عزمه صلى الله عليه وسلم على مصالحة أعدائه يوم الخندق على تمر المدينة^(١) . فلما استشار صلى الله عليه وسلم الأنصار وعارضوا رأيه رجع عنه . ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله :

فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها ، كل هذه يحوز عليه صلى الله عليه وسلم فيها ما ذكرناه من اعتقادي على وحه فيظهر على خلافه . إذ ليس في هذا نقيصة ، إنما هي أمور اعتيادية يعرفها من حرسها وتشغل نفسه بها ، وهو صلى الله عليه وسلم مسحون القلب بمعرفة الربوبية .

٢ - وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عما يعتقده صلى الله عليه وسلم في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ، ومعرفة الحق من المبطل ، والمصلح من المفسد ، ويحكم بأن : كل ذلك على السبيل في أمور الدنيا التي قد يظهر له منها ما الأمر على خلافه أحياناً^(٢) .

[١] سيأتي الحديث عنه .

[٢] ويعلمه الخفاجي ، صاحب المرح عليه ، أن الله احتار له ذلك لئلا يصل به بعض أمته لتوهمهم أنه يعلم الغيب فيقعون فما وقع فيه الصارى .

ويقول صاحب « المنار » في هذا المعنى : وكان من حكمة الله في تربية رسوله صلى الله عليه وسلم وتسكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد إحماده الشخصي البشري فيها لتكون أوقع في نفسه ونفس أتباعه . وأيضاً لتكون مديراً دائماً دائماً لما يتحدث نفسه بما وقعت =

ويؤيد حكمه هذا بذكر حديث الشيخين وأبي داود - واللفظ لأبي داود - :
قال صلى الله عليه وسلم : « إنا أنا نشر ، وإنكم تختصمون إلى ، ولعل
بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع . فمن
قصيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذ منه شيئاً ، وإنما أقطع له قطعة
من نار » ^(١) .

رأى ابن خلدون :

وأما ابن خلدون فيعرض - في مقدمته ^(٢) - عند الحديث عن طب
البادية لما كان يراه الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر العلل وعلاجها ، ويذكر
أن رأيه في ذلك لا يتصل بالوحى ؛ بل يعد من الأحوال التي هي عادة وجملة
له . وعبارته : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على
تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متواتراً عن مشايخ الحى ومخازنه . وربما

== فيه البصائر مع عيسى عليه السلام ، فتكون حداً فاصلاً واصحابين صفات البشر وصفات
خالق البشر ، وصفات الحادث الذى يتلقى عن غيره ما يكمله ، وبين صفات القديم الذى
يقبض من قبض عالمه على من يختار من عباده . سبحانه هو وحده ، الذى ليس كمثل شيء ! .
[١] قال شارح الشعاء في تعليقه على هذا : لما أمر الله تعالى أمته بالافتداء به واتساعه في
قضاياه وأحكامه كان حكمه على هذا النحو ، وإلا لم يكن للأمة سبيل للاقتداء به في شيء
من ذلك ، وليقتدى به حكام أمته ، ويستوثقوا بما يؤثر عنه ، ويصبط قامون شريعته .
[٢] طبع المطبعة الأميرية ؛ سنة ١٣٢١ هـ ص ٤٦٧ .

يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج .
وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون : كالحارث
ابن كِلْدَة وغيره

والطب المنقول فى التّرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي فى شىء ،
وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال النّبي صلى الله عليه وسلم
من نوع ذكر أحواله التى هى عادة وحيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على
ذلك النّحو من العمل . فإبه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلّمنا الشرائع ، ولم
يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات . وقد وقع له فى شأن تأييد النّخل
ما وقع ، فقال : أنتم أعلم بأمر دياركم

ولا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة
المقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه . اللهم إلا إذا استعمل على
جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم فى النفع . وليس ذلك
فى الطب المزاجى ، وإنما هو من آثار السكّمة الإيمانية ، كما وقع فى مداواة
المبطلون بالهسل والله الهادى إلى الصواب ، لا رب سواه .

رأى السكّال بن الهرمام :

والسكّال بن الهرمام فى كتابه « التحرير » يذكر أن أكثر الأقوال الفقهية ترى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالاجتهاد مطلقاً فى الأحكام الشرعية ، والحروب ، والأمور الدينية من غير تقييد شىء منها ويشير إلى أن ذلك مذهب عامة الأصوليين . مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعامة أهل الحديث ^(١) كذلك ثم يسوق قوله تعالى : « عَمَّا لَلَّهِ عَمَّا لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ » ،

[١] وحاء فى التحرير وشرحه أيضا :

« وقال الأشاعرة وأكثر المعتزلة لا يصح أن يكون صلى الله عليه وسلم مأموراً بالاجتهاد فى الأحكام الشرعية .

وقال بعد ذلك : وقيل كان له الاجتهاد فى الأمور الدينية والحروب دون الأحكام : وقيل كان له الاجتهاد فى الحروب فقط ، وهو يحكى عن القاصى والحائى .

وقال القرافى فى شرح تنقيح الفصول : قال الشافعى وأبو يوسف وقع منه صلى الله عليه وسلم الاجتهاد . وقال أبو على وأبو هاشم : لم يكن متعبداً به لقوله تعالى : إن هو إلا وحى بوحي . وقال بعضهم كان له صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى الحروب والآراء دون الأحكام . وتوقف أكثر المحققين وقال ابن الخاحب وشارحه العبد : المختار وقوعه ، لا : عفا الله عنك لم أدت لهم . عاتبه على حكمه ، ومثل ذلك لا يكون فيما علم بالوحي . وقال صلى الله عليه وسلم . لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى وسوق الهدى حكم شرعى . أى لو علمت أولاً ما علمت آخراً لما فعلت . ومثل ذلك لا يستقيم إلا فيما عمل بالرأى . قال السعدى فى الحاشية : قوله عاتبه على حكمه الذى هو الأدب بالتخلف عن توكيد طهر بفاقهم . وهذا يقوم حجة على من مع اجتهاده مطلقاً . أما من حوره فى الحروب وأمور الدنيا دون الأحكام الشرعية التى تتعلق بذلك فالجحة عليه قوله صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى . . . الحديث . ولذا صرح بأن سوق الهدى حكم شرعى . وقال العطار فى حاشيته على شرح الحلال المحلى : والعال على الطن أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يجتهد فى قواعد أصول الفقه كما سيأتى ، وكان يجتهد فى العروع .

ويعلق عليها بقوله : ولا عتب فيما هو وحي من عند الله ، ويرد ما قاله السكرماني من أنه عتاب على ترك الأولى ، بأن ظاهر الآية مخالفه ^(١) .

ثم يذكر أنه قد جاء في الحديث الصحيح : « أنه بعد أن مال صلى الله عليه وسلم إلى رأى أى نكر وأحد العداء ، وخالف بذلك رأى عمر القائل بالقتل ، وزلت الآية الكريمة السابقة : « مَا كَانَ لِإِنْسِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى' . . . » بكى صلى الله عليه وسلم وبكى معه أبو بكر ، قال عمر : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب بكائه فقال صلى الله عليه وسلم : أبكى للذى عرض على أصحابك من أحدهم الفداء ، ولقد عرض على عداهم أدنى من هذه الشجرة ، وقال : لو زل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر . ويستنتج منه : أنه يدل على أن أخذ الفداء كان باحتياط ، وكان خطأ عظيماً ، ويعمل ذلك بقوله : لأن العذاب لا يكون لترك الأولى ، ثم يستطرد فيقول : فإن قلت : كيف هذا وقد تقرر أن الخطيئة فى الاجتهاد له أحر واحد ؟ ، قلت : الأجر على تقدير أن لا يكون حلاف ما أدى إليه الاجتهاد طاهراً .

[١] قال شارح مسلم الثبوت : وقد يقال : هذا لا يدل على كون أحد العداء بالرأى فإنه محذور أن يكون صلى الله عليه وسلم محيراً بين العداء والقتل ، ويكون القتل أولى ، والعتاب لترك الأولى . ولا يحى أن هذا بعيد . فإن مثل هذا الوعيد الشديد لا يكون على خلاف الأولى .

فأما إذا كان ظاهراً ، فلا . بل يستحق المجتهد العذاب . ألا ترى أن المبتدعة قد كانوا مجتهدين . فحيث كان حلاف رأيهم ظاهراً استحقوا العذاب . قال صلى الله عليه وسلم : « كلهم في النار إلا واحدة » . فإن قلت إذا كانت الحكمة في عدم تعذيب الخطيء أنه بدل وسعه في طلب الصواب فلا يفترق الحال في كون المجتهد فيه عملياً أو اعتقادياً ، فلم يحكمهم بعدم نجاه المبتدعة وهم مجتهدون في العقيدة ؟ قلت : في الاعتقاد لم يكن الحل صالحاً للاحتياط ، لوجود النص المفيد للقطع ، والشارع قد منع الخوض في ذلك .

ثم قال : وقد ثبت اجتهاده صلى الله عليه وسلم في الشرعيات ، فقال : « لو استعملت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ، فعمل أنه لم يسق نوحى ، وإلا لم يقل ذلك . وأيضاً لو كان سائقاً بالوحي لكان عامه بالمصلحة كعدم علمه بها^(١) - وسوق الهدى مندوب - فقد اجتهد في حكم شرعى . ثم قال : إلا أنه صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد وأخطأ لا يقر على الخطأ . ثم قال : ولا يبعد أن يقال : إن في جوار الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فكر البتسر وإن كان في أعلى الدرجات يحتمل الخطأ ، بخلاف الوحي . ثم قال : وقول من أسكر وقوع الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتأول مثل آية : [عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ] . وآية : [مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَسْكُونَ لَهُ أُسْرَى ... الخ] على حلاف ظاهرهما على وجه يحل بكال

[١] أى فلا يصح منه (ص) الدم على سوق الهدى

بلاغه القرآن من غير ضرورة ملجئة إليه ، قول لا ينبغي أن يقدم عليه أهل العلم مبالغة منهم في علو شأن الأنبياء . لأن خطأهم في الاجتهاد لا يخل بعلو شأنهم . أى بخلاف الإحلال ببلاغه القرآن فإنه شديد الخطر ، لا يقدم على سببه مسلم . ثم قال : وكان الخطأ في مسألة الأسرى أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه نظروا إلى أن استبقاءهم سبب للإسلامهم ، وفداءهم يتقوى به على الجهاد . وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام ، وأرهب لمن وراءهم ، وأقل لشوكتهم . ولا يصح أن يكون هذا التشديد من الله لخالفته الأولى ، كما قال السكرماني . لأن مثل هذا الوعيد لا يلائم ترك الأولى . ثم قال : واتفقوا على أنه صلى الله عليه وسلم لا يقر على الخطأ .

ثم ينتقل — السكال ابن الهمام — لمعالجة نقطة أخرى ، وهى الاجتهاد في الأحكام الفقهية ، فيقول : وأما الأحكام الفقهية فمنكر الضروري منها — وهو الذى يعرفه كل أحد حتى النساء والصبيان كفرضية الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وحرمة الزنا والخمر ، وقتل النفس المحرمة ، والسرقه — كافر « لأن إنكار ما هو من ضروريات ملة الإسلام يستلزم إسكارها باجتهاد باطل ، لا تنفاء شرط الاجتهاد ، وهو كون المجتهد فيه نظريا بأن لا يكون (٤ — اجتهاد نبى الإسلام)

حلافه بدهيا^(١). ومنكر غير الضروري من القواعد الأصلية^(٢) ككون الإجماع حجة ، وحبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، آثم . ومنكر غير الأصلية وهي الأحكام الفرعية الاجتهادية فالقطع على أنه لا إثم فيها على المخطيء بشرط حل الاجتهاد بأن لا يكون في مقاله دليل قاطع من نص أو إجماع ، لدلالة إجماع الصحابة على عدم تأييم المخطيء فيها ، إذ شاع اختلافهم في المسائل الاجتهادية ولا بد من خطأ واحد من المتناقضين ولم ينقل تأييم واحد لغيره ، ولو وجد لشاع لأنه أمر خطير . وعدد وقائع الخلاف من زمن الصحابة إلى انقراض المجتهدين أكثر من أن يحصى .

[١] روى البخارى (١٢٠ ص ١٦٢ فى الديات) عن عبد الله بن مسعود ، قاله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الرانى ، والمعارق لديه التارك للجماعة » . قاله الحافظ بن حجر : قال ابن دقيق العيد : قد يؤخذ من قوله « المعارق لديه التارك للجماعة » أن المراد المخالف لأهل الإجماع فيكون متمسكاً بقول : مخالف الإجماع كافر . وقد نسب ذلك لبعض الناس ، وليس ذلك ناهي : فإن المسائل الإجماعية تارة يصحبها التواتر بالعقل عن صاحب الموضع كوجوب الصلاة مثلاً ، وتارة لا يصحبها التواتر . فالأول يكفر حاحده لمخالفته التواتر ، لا لمخالفته الإجماع . والثانى لا يكفر به . قال شيخنا فى شرح الترمذى : الصحيح فى تكفير منكر الإجماع تقييده بإنكار ما يعلم وجوبه من الدين بالضرورة ، كالصلوات الخمس . ومنهم من عبر بإنكار ما علم وجوبه بالتواتر .

[٢] هى التى ينبى عليها الفروع .

ويستطرد فيقول : وقال الجاحظ : لا إثم على مجتهد أى مجتهد يكاف ، ولو كان الخطأ منه واقعاً في نفي الإسلام ، وكان الاجتهاد من غير المسلم . وتحرى على النافي المذكور أحكام الكفار ، لأنه لا سبيل إلى إجراء أحكام المسلمين لعدم الإسلام ولا واسطة . وما قاله الجاحظ من 'نفي الإثم هو مراد الغنبري'^(١) بقوله : المجتهد في العقليات مصيب . وجميع المسلمين على خلاف رأيهما .

ثم ينقل عنهما فيحكي أنهما يقولان : تكليف مجتهدى الكفار بنقيض مجتهدهم تكليف مما لا يطاق ، فلم يكلف إلا بما في وسعه من الاجتهاد وقد فعل . ويذكر أنه أجيب بمنع أنه فعل ما كلف به . إذ لا شك أن على هذا المطلوب الذى كلف بالوصول إليه وهو الإسلام أدلة قطعية ظاهرة بحيث لو وقع نظره في موادها الموجودة في النفس والآفاق المنادية بلسان الحال إن الطريق هكذا لا يتغير لظهوره كالشمس - لوصل قطعاً . فإذا نظر ولم يصل للحق مع ذلك علم أنه فقد شرطاً من شروط النظر ، لتقصيره وعدم التفتاته إلى ما يرشده لاسمها كه في مطبوعة التقليد للآباء » .

[١] هو عبد الله بن الحسين الغنبري من المعتزلة (كما قال الأمدى في الأحكام) .

الفصل الثالث

بعض أمثلة من اجتهاد الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم :

جاء في القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وصف بعضها بأنه معصية ، والبعض الآخر بأنه ذنب ، كما وصف نوع ثالث منها بأنه خطيئة . وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء عن اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحياً ، وإلا لو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم بها لما صح أن يوجه الله إليهم لوما ، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضرعة والتوبة .

روى البخارى عن أنس ، قال : قال صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا ! فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ويقول : انتوا نوحا أول الرسل وفى رواية فيقول : قد أخرجت بخطيئتي من الجنة ، وفى رواية : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة

أيكم آدم ؟ اذهبوا إلى نوح ! ، وفي رواية : إنه نهى عن الشجرة فعميت ،
نفسى نفسى ! ، اذهبوا إلى غيرى ! ، فيأتون نوحا فيقول : لست هنا كم ،
وبدكر حطيئته ، انتوا إبراهيم الذى اتخذه حليلا ! (وفي رواية ويذكر سؤال
ربه ما ليس له به علم - قال ابن حجر ، تعليقاً على ذلك ، خشى أن يكون
الشفاعة لأهل الموقف من ذلك -) ... إلى أن قال فى الحديث : فيأتون
موسى ، فيقول : لست هنا كم ، وبدكر حطيئته (وفي رواية يقول : إني قتلت
نفساً غير نفس ، وأن يغفر لى اليوم حسبي) ... الخ » .

وروى البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه
وسلم : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة
كلهن يأتى بفارسٍ يحاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ! ،
فلم يقل : إن شاء الله ! . فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل :
والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » .
والحافظ بن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله : قال بعض السلف : به
صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض .
ولذلك نسي سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر ... ثم قال : وكان سليمان
عليه السلام نسي بعد ذلك كبره لشيء عرض له فشغله .

ورواية البخارى سواء عن طريق أنس أو أنى هريرة رضى الله عنهما تنبى عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليه السلام ، كل منهم إما أحس فى نفسه بتقصير نتيجة خطأ فى رأى أو نسيان منه ، أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالى على أن الأنبياء بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحى الإلهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى ، جاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، كما يجوز عليهم النسيان . يتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد شوقاً إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته .

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله والله لوجب أن يتحقق مصمون قوله ويتنزه عن الخطأ فعلة حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان فى رسالة الله مالا يصح أن يكون لله الذى هو الحق منذ الأزل إلى الأبد (١) .

[١] وقد تقدم بعض ما وقع من بعض الانبياء غير ما ذكرها . انظر كلام اس حرم وابن تيمية فى الفصل الثانى من الباب الأول صفحة (٣١ - ٣٤) .

البَابُ الثَّانِي

الفصل الأول

اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم

تقديم :

سنعرض في هذا الباب لكثير من الصور التي بدا فيها رأيه صلى الله عليه وسلم ، وهي كثيرة متنوعة . فمرة بدا الرأي في صورة الظن ، وأخرى في صورة العلم أو الجزم ، وثالثة في صورة التمتي ، ورابعة في صورة الأمر أو الدعاء ... الخ .

وسيعلم القارئ من عرضها :

أولاً :

- (١) إن كان قد أذن له صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد ، أم كان لا يصدر عنه فعل ولا قول مثلاً إلا بإذن خاص من الله ؟
- (٢) وإن كان له أن يجتهد فهل كانت دائرة اجتهاده أمور الدنيا الصرفة ، أم معها أمور الدين كذلك ؟ .

(٣) وإن كان له أن يجتهد في الكل فهل وقع منه صلى الله عليه وسلم اجتهد في أبواب العبادات كالصلاة ، والحج ، والصيام ... وما يتصل بذلك من دعاء واستغفار وغيرهما ؟ .

(٤) ثم هل وقع منه صلى الله عليه وسلم اجتهد في الأمور الغيبية أيضاً ، أم كان اجتهد قاصراً على غير الغيبيات ؟ .
وثانياً :

(١) إن ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فهل كان يصيب دائماً ، أولاً ؟ .

(٢) وإن كان الثاني فهل كان يقع منه صلى الله عليه وسلم غير الصواب حتى في الأمور الدينية ، أم كان ذلك في أمور الدنيا فقط ؟ .
وثالثاً :

(١) إن كان يقع منه غير الصواب في الجميع فهل يجب أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم فوراً في كل أنواع اجتهد ، أم يجوز أن يتراخى بيان الصواب ؟ .

(٢) وإن كان الثاني فهل ذلك يكون عاماً في أمور الدين والدنيا ، أم في أمور الدنيا فقط ؟ أما في أمور الدين فيجب بيان الصواب فوراً ؟ .

ورابعاً :

(١) إذا علمنا أن رؤيا الأنبياء وحى فهل يتناول اجتهاده صلى الله عليه وسلم تعبيرها ، فيصيب تارة دون أخرى ؟ .

وخامساً :

(١) إن قلنا : إنه كان يجتهد في كل شيء فهل امتد اجتهاده صلى الله عليه وسلم إلى فهم القرآن ، أم كان ذلك بالوحى فقط ، أم منه ما كان بالوحى ومنه ما كان بالاجتهاد ؟ .

(٢) وإن كان منه ما كان باجتهاد فهل يجوز عليه فيه غير الصواب أيضاً ؟ .

(٣) وإن كان يجوز فهل يوحى إليه بوجه الصواب فوراً ، أم يجوز التراخي لوقت الحاجة ؟ .

وسادساً :

(١) هل سكوته على ما يقع بحضوره صلى الله عليه وسلم يكون حجة على صحة ما وقع ؟ .

ما برأ منه إجهاده في صورة « الظم » :

١ — عرض صلى الله عليه وسلم لمن غضب عليهم الله من بنى إسرائيل
فمسخهم حيوانات ، وظن أن من مسخ منهم يجوز أن ينسل ، وأن الفسار
والصب كلاهما من نسل الممسوخ . وآية ذلك أن الفأر إذا وضع لها ألبان
الإبل لم تشربها وإذا وضع لها ألبان الشاء شربتها . وتفصيل الثانية على الأولى
كان من عادات بنى إسرائيل — وكذلك توقف في إباحة أكل الضب
والنهى عنه .

(١) يروى في ذلك البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبی
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يدري ما فعلت .
وإني لا أراها إلا الفأر : إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب وإذا وضع لها ألبان
الشاء شربت ^(١) » .

[١] في مسلم عن أبى هريرة مثل هذه الرواية . ونصها : فقدت أمة من بنى إسرائيل
لا يدري ما فعلت ، ولا أراها إلا الفأر . ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربها
وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته .

القردة من مسخ فقال: «إن الله لم يجعل لمسخ سلا ولا عقبا، وقد كانت القردة والخنزير قبل ذلك» .

ويروى أبو داود بسنده عن ابن مسعود أيضاً أنه قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنزير، أهى من نسل اليهود؟ فقال: «لا . إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسل . ولكن هذا خلق كان . فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم» .

ويقول ابن كثير في تفسيره - نقلاً عن ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس - : إن الدين جعلوا قردة فَوَاقًا^(١) ثم هلكوا . ما كان لمسخ نسل ! . ويذكر أيضاً - نقلاً عن الصحاح ، عن ابن عباس - : بعد جعلهم قردة لم يحيوا إلا ثلاثة أيام ، ثم قال : لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ، ولم ينسل .

والحافظ بن حجر في توفيقه بين هذين الضربين من الأحاديث لم يخرج عما ذكرناه من أنه أبدى رأيه أولاً عن اجتهاد منه ثم كان وحى الله له بعد ذلك . ولذلك يقول : قال الجمهور : إنه صلى الله عليه وسلم قال ما قال أولاً قبل أن

[١] الفواق : الرمن البسير ، قدر ما بين حلقى الباقية .

يوحى إليه بحقيقة الأمر في ذلك . ولذا لم يأت الجزم عنه بشيء من ذلك ،
بخلاف النبي فإنه حرم به ، كما في حديث ابن مسعود المتقدم .

لكن أكان الوحي بحقيقة الأمر في ذلك على الفور أم على التراخي ؟ .
يصعب علينا أن نحدد الفترة الزمنية بين الأمرين ، بين إبداء الرأي والوحي .

ما برأ من اجتهاده في صورة « القطع » :

١ — سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصائر أولاد المشركين
فحكم على سبيل القطع بأنهم تبع لأبائهم .

يروى ابن كثير في تفسيره عن الحافظ أنى يعلى عن البراء بن عازب أنه
قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين ، فقال : « هم
مع آبائهم » .

ويروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن عائشة أنها قالت : سألت رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين ، فقال : « هم تبع لأبائهم » .
فقلت : يا رسول الله بلا أعمال ؟ . فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وروى أبو داود عن الشعبي — بلفظ عام — أنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « الوائدة والمودودة في النار » .

٢ — ولكنه عليه الصلاة والسلام في روايات أخرى تحدث عن مصيرهم بما يعد مقابلا للحكم السابق :

(١) مرة وكل مصائرهم إلى علم الله . يروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دعى رسول الله إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ! طوى لهذا . عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءا ، ولم يدركه . قال : « أو غير ذلك يا عائشة ؟ . إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » .
(ب) ومرة يحكم عليهم بأنهم على الفطرة والقابلية لأن يتجه بهم ذات اليمين أو ذات اليسار .

يروى مسلم عن أنى هريرة أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « ليس من مولود يولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه » .

ويروى أحمد والنسائي عن الأسود بن سريع عن بنى سعد أنه قال : غرقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات ، فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ » . فقال رحل : يا رسول الله ! ألبسوا أبناء المشركين ؟ . فقال : « إن خياركم أبناء المشركين . ألا إنها ليست سمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها » .

ويروى الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة » .
فناداه الناس يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ . فقال : « وأولاد المشركين » .
(ح) ومرة يميل بهم إلى أنهم حنفاء مسلمون .

يروي مسلم عن عياض بن حماد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
عن الله عز وجل أنه قال : « إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين » .
(د) وأخرى يحكم عليهم بأهم من أهل الجنة .

يروي الطبراني عن سمرة أنه قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن أطفال المشركين ، فقال : « هم حدم أهل الجنة » .

ويروي أحمد عن حسان بنت معاوية من بنى صريح أمها قالت . حدثني
عمي قال : قلت يا رسول الله امن في الجنة ؟ . قال : « النى في الجنة ، والشهيد
في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوثيد في الجنة » .

فمجموع هذه الأحاديث يعطى أنه أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام
في أولاد المشركين ومصيرهم قولان : قول يلحقهم بأبائهم ، وآخر يبعدهم عن
هذه التبعية لأبائهم وأحد هذين القولين صدر من غير شك على سبيل
الاجتهاد منه ، والذى عد تصويبا له من الله . أما أيهما كان اجتهدا وأيهما
(هـ)

كان تصويبا ، فالعلماء على أن الرأي المختار منهما عدم إلحاق أبناء المشركين
بآبائهم مستندين إلى الآية الكريمة : [وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ
رَسُولاً] .

والمحاربي رضى الله عنه عندما تعرض لأحاديث هذا الباب ذكرها
كما يأتي :

ذكر أولا حديث ابن عباس ، وهو أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن
أولاد المشركين فقال : « الله إذ خلقهم أعلم مما كانوا عاملين » ،

وتنسى محدث أى هريرة ، وهو أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
ذراري المشركين فقال : « الله أعلم مما كانوا عاملين » ،

وتلت محدث أى هريرة ، وهو أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « كل
مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ،

وذكر أخيراً حديث سمرة بن جندب ، وهو أنه قال في كلام طويل :
قال صلى الله عليه وسلم : « ذات يوم أتاني الليلة آتيان فاطلقت معهما . .
إلى أن قال : فاطلقتنا حتى انتهينا إلى روضة حضراء فيها شجرة عظيمة وفي
أصلها شيخ وصبيان - وفي رواية : وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل
لأكاد أرى رأسه طولا في السماء ، وإذا حول الرجل ولدان مارأيت قط
أكثر منهم - فقلت : ما هذا ، وما هؤلاء ؟ فقالا : أما الرجل إبراهيم عليه
الصلاة والسلام ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة . .

قال سمرة : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم وأولاد المشركين » .

والحافظ بن حجر في شرحه لهذه الأحاديث يعلل تربب البخاري لها على هذا النحو بقوله :

رتب المصنف أحاديث الباب رتيباً يشير إلى المذهب المختار من أن أولاد المشركين في الجنة . فانه صدره بالحديث الدال على التوقف ، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة ، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك فانه قال في سياقه : « نعم وأولاد المشركين » .

ونقل عن الموصي سبب اختيار هذا المذهب فيما يحكيه عنه هنا بقوله :
والمذهب الصحيح المختار أنهم في الجنة . وهذا ما ذهب إليه الحقوقيون ،
لقوله تعالى : [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا] . وإذا كان الله لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أولى .

وذكر النووي أيضاً في شرحه حديث عائشة الذي رواه مسلم متعلقاً
بجنازة الصبي من الأنصار : أن من يعتد به من علماء المسلمين أجمع على أن
من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة ، لأنه ليس مكلفاً . كما ذكر

أن بعض من يعتمد به أيضاً توقف في هذا الحكم ، لحديث عائشة هذا . ثم روى ما أجاب به العلماء توفيقاً بين الرأيين من أنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك - الحديث المروى عن عائشة - قبل أن يعلمه الله أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحلم إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » (١) .

١ — وفي حادثة أخرى يروى أحمد ، بأسناد على شرط البخارى ، عن عائشة أن يهودية كانت تحذمها ، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية : وقاك الله عذاب القبر ! . فقلت : يا رسول الله ! هل للقبر عذاب ؟ قال : « كذبت يهود : لا عذاب دون يوم القيامة » (٢) .

فنفى صلى الله عليه وسلم العذاب دون يوم القيامة على وجه القطع .

٢ — ولكنه في رواية أخرى بتبته :

[١] رواه البخارى عن أنس بن مالك .

[٢] في رواية البخارى عن عائشة روح النبى صلى الله عليه وسلم أن يهودية حاءت تسألها ، وقالت لها : أعادك الله من عذاب القبر . فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيعذب الناس في قبورهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أما عائد بالله من ذلك » .

(أ) يروى مسلم عن عائشة أمها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى امرأة من اليهود ، وهى تقول : هل شعرت أسكم نفتنون فى القبور ؟ . قالت : فارتاع صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إنما تفنن يهود » . قالت عائشة : فلبتنا ليلالى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « هل شعرت أنه أوحى إلى أسكم نفنون فى القبور ؟ » . قالت عائشة : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يستعيد من عذاب القبر .

(ب) ويروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر أمها قالت : أتيت عائشة حين خَسَمَتِ السُّمُسُ وإذا الناس قيام يصلون ، وإذا هى قائمة تصلى ... إلى أن قالت : فلما انصرف صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما من شئ كنت لم أره إلا وقد رأيته فى مقامى هذا ، حتى الجنة والنار . ولقد أوحى إلى أسكم تفتنون فى القبور مثل - أو قريباً من - ^(١) فتنة الدجال » .

والحافظ بن حجر يقرر اختلاف هذه الروايات ، ويختار فى تعليقه ما قرره النووى هنا من أنه صلى الله عليه وسلم حينما نفى عذاب القبر كان ذلك قبل

[١] الشك من روى عن أسماء .

أن يُعلمه الله ، ولما نزل الوحي أقر بأن هناك عذاباً للقبر . .

ويستطرد الحافظ فيقول : إن في حديث الكسوف ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القبر وهو بالمدينة وفي أواخر الأمر ، لأن تاريخ صلاة الكسوف يدل على ذلك . لأنها كانت يوم مات ولده إبراهيم عليه السلام وموت إبراهيم كان في السنة العاشرة .

ويستمر فيذكر : أن الذي نفاه صلى الله عليه وسلم أولاً إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين ، ثم أعلمه الله بأن ذلك قد يقع على من يشاء منهم ، فيجزم به ، وحذر منه ، وبالف في الاستعاذة منه تعليمًا لأئمة صلى الله عليه وسلم .

وهنا في هذه المسألة نحدد اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم صَوِّتَ بوحي من الله . لكن العترة التي وقعت بين الرأي وتصويبه لا تحدد إلا إذا علم على وجه الدقة : من هي اليهودية التي كانت تتردد على عائشة رضي الله عنها وعلم وقت هذا التردد .

ما برأ منه إبهاده في صورة التقي :

- ١ - أحب صلى الله عليه وسلم أن يكون البيت الحرام قبلته في الصلاة ، بعد ما مكث متجهاً فيها إلى بيت المقدس أكثر من ستة عشر شهراً .
- ٢ - فأجابه الله إلى ما طلب ، وصرف قبلته إلى الكعبة مما أنزله في الآية الكريمة : [قَدْ رَرَى تَقَلَّتْ وَحِجَّكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا] .

يروى البخارى عن الرءاء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت - وفي رواية : كان يحب أن يوجه إلى الكعبة - فأنزل الله تعالى : [قَدْ رَرَى تَقَلَّتْ وَحِجَّكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا] فتوجه إلى نحو الكعبة^(١) .

ويحدد ابن كثير في تاريخه - نقلاً عن ابن عباس وابن مسعود - أن القبلة صرفت في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه

[١] وروى ابن ماجة من طريق أبي بكر بن عياش ، قال : صلياً مع النبى صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة إلى الكعبة .

وسلم المدينة ، ويزيد تحديداً بقوله : إن الجمهور الأعظم على أنها صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة .

ويحمل النقل عن ابن عباس - في رواية أحمد عنه - في : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى وهو ممكّة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما هاجر إلى المدينة ولم يمكن الجمع بينهما صلى إلى بيت المقدس . ويمثل رغبة الرسول في التوجه إلى الكعبة في الصلاة بأنها قلة أبيه إبراهيم ، وقد جاء داعياً إلى احياء ملته وتحديد دعوته . والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعاً ، وهم نواة الدين وأساس الدعوة .

وهنا تراعى الوحي في إجابة الرسول إلى ما أحبه ، فاجتهد عليه السلام أولاً وبدا اجتهداه في صورة رغبة وأمنية وحققها له الله سبحانه وتعالى ، وبذلك أصبح ما رآه بالاجتهاد مشروعاً مقراً عليه من ربه .

وفي جانب آخر أثناء دعوته صلى الله عليه وسلم للإسلام كان بعض زعماء الكفار يحاول في صور شتى أن يضع العراقيل في سبيل انتشار دعونه ، مرة بالاستحفاف منه واتهامه بما لا يليق بداعٍ إلى الحق ، وأخرى بتقديم طلبات مبدين ضرورة إجابتها حتى يكون ذلك تمهيداً لتصديقه والسير في اتجاهه . شأنهم

في ذلك شأن أى فريق معارض ، معاند في معارسته . والرسول عليه السلام كانت تغلب عليه طبيعته البشرية في بعض الأحيان إزاء ذلك ، مرة يتأثر في دحية ربه بما تهوم به ، وأخرى يتمنى نفسياً أن يأتي الله على يديه بما يحقق بعض ما طلبوا تحميته . لكن الله حلت قدرته وعزت إرادته هو الكميل بأن ينصر رسوله في دعوته إلى الحق ، ولذا كان يتكفله بتقوية عزمه وطمأنينته على مسنقل دعوته حين تستحكم الأزمة ، أو تشتد الرغبة في محاربتهم .

١ - يحكى الله سبحانه وتعالى مثل قوله : [لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْلَا أَنْزَلْنَا مَلَكَائِلَهُمْ لَافْتَحُوا الْأَرْضَ عَنْهُمْ لَيْسَ بِطَارِئٍ ، وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ آيَةً ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]^(١) . بعض ما كان يطلبه الكفار من رسوله الكريم ويتمنى أن يحبيه الله إليه .

٢ - لكن الأمر يرتبط بمصلحة الدعوة ، وبحكمة الألوهية لم يحبه الله في بعض الأحيان إلى ما تمنى ، وهو العلم الخبير .

بقول تعالى : [قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا ، حَتَّى
 أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ
 الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَثُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
 تَدْتَغِيَ مَعْقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ ، وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ لَحَمَمْنَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَالِهِينَ [(١)] .

والمفسرون يقولون في معنى هذه الآيات (٢) : إن زعماء الكفار كانوا

[١] آيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .

[٢] ويقول صاحب المنار : والمحذاري المراد عما يحربه مما يقولون انه هو ما تقدم أول
 السورة من قولهم : [لولا أنزل عليه ملك . الخ] وما في معناه . والكلام في طائفة
 الخاضعين كراً وعياداً كأبي جهل ، والأحنس بن شريق الثقفي . وهؤلاء لم يكونوا يعتمدون
 كعبه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يحاولون صرف الناس عنه تارة ، فقولهم : ساحر
 وما مثله ، وتارة : ناقض آيات محصورة من نزل ملك ، أو أن يكون له بيت من
 رحرف . الخ .

والمعنى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على هداية قومه كان يتمنى لو آتاه
 الله بعض ما طلب رعيادتهم طائفاً منهم بذلك يؤمنون فيتبعهم من عداهم فيقطع الشر ويعم
 الهدى . وكان الجواب : إنك إن استطعت الإتيان بآية بما اقترحوا من عند نفسك فافعل
 أي إنك لا تستطيع يا محمد الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا اقتضت مشيئة أن تؤتيك ذلك
 لعلمنا بأن ذلك لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم ، لأنهم معاندون عن معرفة فلا يسمع منهم
 شيء . ولو جئنا بما اقترحوا ولم يؤمنوا لأهلكناهم [وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا
 ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون] .

بقترون الآيات عليه صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يتمنى لو أتاه الله بعض ما طلبوا حرصاً على هدايتهم ، ودفعاً لحزنه وأسفه لسكفرهم . ولكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من

== ومعنى [لو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكون من الجاهلين] : لو شاء الله جمعهم على ما حثت به من الهدى لجمعهم بحمل الإيمان ضرورياً لهم ، كالملائكة . ولكنه تعالى شاء أن يكون بالاختيار ليتحقق نظام هذه الدار المعدة للتكليف المستتبع للثواب والعقاب . فإذا عرفت أن هذه سمة الله في هذا النوع من الخلق فلا تكن من الجاهلين بسمة الله الذين يتمنون ما يروونه حسناً ، وإن كان حصوله متمتعاً بسكوته محالاً للحكمة الإلهية . فالجهل هما صد العلم ، لا صد الحلم . وليس كل جهل بهذا المعنى عيباً ، لأن الخلق لا يحيط بكل شيء . وإعما يدم الإنسان بجهل ما يحب عليه ، ثم يحفل ما يدعى له ويعد كما لا يق حقه إذا لم يكن معدوراً في جهله . قال تعالى في وصف الغفراء المتقربين : [يحسبهم الجاهل أعياء من النعم] . فوصف الجهل هنا لم يكن دماً . وكل ما يتوقف عليه على الوحي الإلهي لا يكون جهل الرسول به عيباً قبل نزول الوحي به . وإعما الذي يدم هو الجهل المرادف لسهو وهو صد الحلم .

وما قيل لدينا صلى الله عليه وسلم يشه ما قيل لسيدنا روح عليه السلام : [إنى أعطك أن تكون من الجاهلين] — أى سب لإدخال ولدك الكافر في عداد أهلك المؤمنين . وإعما افترق نهى روح بالوعظ لأن عاطمة الرحمة الوالدية حملته على سؤال ما ليس له به علم اعتماداً على استمساك احتشادى غير صحيح ، لأنه فهم أن وعد الله نجاته أهله يشمل أهل النسب وإعما مراد الله أهل الإيمان . ورحمة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل كانت أعم وأشمل لأنها للأمة عاطمة لا للولد والقرى فقط .

وعاية ما تشبه إليه الآية — ولو شاء الله لجمعهم على الهدى — أنه تمى . ولكن لم يسأل صراحة . وأيضاً لو سأل لسأل آية يهتدى بها الصالح من قومه لا الكافر من أهله فقط . فلذا اكتفى سبحانه وتعالى في إرشاده بالتهى فقط ، وحسن في إرشاد نوح النصريح بالوعظ ، والله أعلم .

الآيات ما يطلبون ، وفوق ما يطلبون ، كما قال : [وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَسَوْهُ بِإِثْمِهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ] (١) .

فالرسول عليه الصلاة والسلام إزاء طلب الكفار اعترته حالة نفسية هي حالة المتمنى ، وذلك من حالات الإنسان كإسنا . ولا شك أن نزول الآية الكريمة بعدم احاقته إلى ما تمى قطع لهذه الحالة عنده أو تصحيح للوضع كما يحب أن يكون عليه . والرسول الكريم يتمنيه هذا كانه رأى ذلك لتيسير السبيل لدعوته . والله جل شأنه بعدم موافقته على ذلك - بناء على علمه بطبيعة هؤلاء الطالبين وأمثالهم - قد حدد الطريق السليم لنجاح دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكن أكان التحديد منه جل شأنه للطريق القويم فور تمنيه صلى الله عليه وسلم ؟ أم حصلت بين الأمرين فترة زمنية تجعل وقوع أحدها إثر الآخر معتبراً في تصور الإنسان على سبيل التراخي ؟ . والحكم على ذلك أيضاً بتناق عسير . بالأخص إذا علم أن التمنى أمر نفسى لا نستطيع معرفة بدايته عند المتمنى لغيره . والرسول عليه السلام وهو الذى كان هنا فى حال المتمنى لم

[١] آية ٧ من السورة السابقة .

ينخبز بذلك ، والله وهو الذى وسع علمه كل شئ لم يوح على لسان نبيه المصطفى أيضاً بذلك .

وفى حادثة ثالثة كان من تقاليد العرب فى جاهليتهم أنه لا يتزوج الرجل زوجة متبناه ، إذا طلقها أو مات عنها . لأنهم كانوا يعتبرون زوجة المتبنى كزوجة ابن الصلب تماماً . ولما جاء الإسلام بإبطال هذه العادة وكانت مسائل النكاح من الحساسية عند العرب بدرجة شديدة أراد الله أن يكون تشريع الإبطال نافذاً على وجه يقطع كل قول ويرفع كل حرج ، فأمر رسول الله بأن يسمع طلاق زيد إذا جاءه طالباً طلاق زوجته وأن يتزوجها هو نفسه ليبطل هذه العادة .

١ - وكان صلى الله عليه وسلم من جهته يخشى أن يكون فى ذلك فرصة يدحل منها متقولوا المنافقين ، وفرصة ينتهزها الخصوم من الكافرين فتبنى أن يحمل الله إبطال هذه العادة على يد غيره ، تبنى صلى الله عليه وسلم ذلك فى دحيلة نفسه ولم يفتح به أحداً .

٢ - دعوت على ذلك من ربه ، وأرسل الله فى ذلك آيات كثيرة من سورة الأحزاب . ومنها | وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ^(١) .

[١] ستأتى زيادة إيضاح لهذه الحادثة عند الكلام عن « ما بدا من احتشاده صلى الله عليه وسلم فى صورة الأمر » .

والحكم هنا أيضاً في ترتب أحد الأمرين على الآخر ، إن كان على الفور أم على التراخي ، مثل حكمنا به في سابقه للسبب الذي ذكر .

مابداً منه إجهاده في صورة « أن هم ولم يفعل » :

في القرآن الكريم بعض آيات يؤذن ظاهرها بتوجيه العتاب من قبل الله سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر نفسه جال بخاطره ولم يتعد ذلك إلى دائرة التنفيذ. فالله تعالى يقول : [فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا أَلَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ ، لِمَا أَنْتَ بَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ^(١)] .

والبغوى في تفسير هذه الآية يذكر سبب نزولها ، فيقول ^(٢) :

١ — إن كفار مكة لما قالوا : أنت بقرآن غير هذا ليس فيه سبب لأهلنا هم صلى الله عليه وسلم أن يدع آلهتهم ظاهراً .

٢ — وأنزل الله : [فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ ... إلخ] .

وهي مؤذنة بتوجيه عتاب ضمى على ما قام بنفسه من « العزم والهم » .
ويقول الله تعالى في موضع آخر :

[١] آية ١٢ من سورة هود

[٢] بعد أن يشرح الحملة الأولى منها بقوله : فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، أى ولا تدعه إياهم .

[وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ آلِدَىٰ أَوْ خَيِّمًا لَّيْسَ لَكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْهِمْ
غَيْرُهُ وَإِدَّا لَاتَّخَذُوكَ حَايِلًا وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَنَّاكَ لَکَدَّ كَذَّبْتَ تَرَکْنُ إِلَيْهِمْ
شَيْئًا قَلِيلًا] ^(١) .

وسعيد بن حمير يروى - في تحديد رول هذه الآية الكريمة - :

١ - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الأسود فمعهته قرىش ،
وقالوا . لا بدعك حتى تستلم آلهتنا وتمسكها .

٢ - فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه : وما علىّ إذا فعلت ذلك والله تعالى
يعلم أنى لها لكاره بعد أن يدعونى حتى أستلم البيت ؟ - وقيل : طلبوا منه
صلى الله عليه وسلم أن يمس آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه ، فحدث نفسه بذلك -
وأرسل الله هذه الآية .

والألوسى فى تفسيره يذكر سلباً آخر لرول هذه الآية ، ويقول :
وأخرج ابن أبى حاتم عن حمير بن نفيير أن قريشاً أتوا النبي صلى الله
عليه وسلم ، فقالوا له : إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط
الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ! ، وكان صلى الله عليه وسلم يشتد
عليه فراق قومه ، ويجب إسلامهم ، فرق لكلامهم فزلت ... وفى شرحه لها

[١] آيتا ٧٣ و ٧٤ من سورة الإسراء .

يقول : والمعنى : إنك إن اتبعت أهواءهم أحلت نفسك محل المفترى علينا ،
لأنك بذلك أوهمت أن ذلك بوحى فكنت كالمفترى . والله أعلم .
وأيّاً كان سبب نزول هذه الآية أو التى قبلها فكلتاها تعطى أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم جال محاطه أمر بمضى يحول عادة محاطر الإنسان
كإسان ، ثم تبلور هذا الأمر النفسى فى صورة « عزم » على تنفيذه ، فعاتبه
الله على ذلك مبيناً له حكمته الإلهية فى خلاف ما هم على فعله .

وكذا فى الحديث الشريف منه ما يعبر عن هذه الحال النفسية للرسول
صلى الله عليه وسلم ، وهى حال الهم بفعل أمرٍ ما ، ثم عدم فعله لمصلحة فى
الترك .

روى البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال .

١ - « والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب ويحطّب ثم أمر
بالصلاة فيؤذن لها ، ثم أمر رجلاً فيؤمّ الناس ، ثم أحالف^(١) إلى رجال
وأحرق عليهم^(٢) بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدكم أن يحرق عرقاً^(٣)

[١] أى آتيهم من خلفهم . قال المحورى : حالف إلى فلان أتاها إذا غاب عنه .
[٢] هذا يشعر بأن العقوبة ليست قاصرة على المال ؛ بل المراد تحريق من فى البيوت ، والبيوت
تبع . وفى رواية مسلم : « فأحرق بيوتاً على من فيها »
[٣] العرق بفتح فسكون ، فال الحليل : العرق عظم عليه لحم .

سمينا ، أو مرماطين^(١) حسنتين لشهد العشاء . وفي رواية مسلم : « أخر صلى الله عليه وسلم العشاء ليلة فخرج فوجد الناس قليلاً ففصب .. فدكر الحديث . » .

٢ - ولكنه لم يفعل ما هم على فعله إما باجتهاد آخر ، أو بوحى من الله فى ذلك .

ويروى مسلم^(٢) عن عائشة رضى الله عنها ، عن حذامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

١ - « لقد هممت أن أمسى عن مكاح الغيلة ،

٢ - حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم » .^(٣)

[١] نثية رماة قيل : هى سهم يتعلم عايه الرى . وقال ابن المير : وتلبيته تشعر بتكرار الرى ، وتكون صلى الله عليه وسلم أراد أن المتحاب قد جمع بين ما يؤكل وبين ما يتلوى به . قال ابن حجر : وفيه إشارة إلى دم المتحلبين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشئ الحقيق من مطعم أو ملعوب به مع التعريط فيما يحصل رفيع الدرجات وهـ . الكرامة .

أما سبب عدم تنفيذ ما هم به صلى الله عليه وسلم لها فعلمه هو ما سيأتى فى حديث أبى هريرة عند البخارى الآتى فى ما بدا اجتهد صلى الله عليه وسلم فى صورة « الطل » ، حيث رجع صلى الله عليه وسلم عن أمره بتجريق رجال أفسدوا ، وقال : « إن البار لا يعذب بها إلا الله » .

[٢] فى باب جوار العيلة : والعيلة هى وطء المصنع .

[٣] وفى رواية أخرى عن مسلم عن حذامة أيضاً قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس وهو يقول : « لقد هممت أن أمسى عن العيلة ، فطرب فى الروم وفارس فإذا هم يغفلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً » .

قال العلماء : وسبب همه صلى الله عليه وسلم بالنهي عنها خوف الضرر على الولد الرضيع . وكانوا يقولون : إن الأطباء ترى هذا اللين داء ، إذا شربه الولد ضوى واعتل . فلذا كانت العرب تكرهه وتنقيه بقدر الطاقة .

والنوى يعلق على هذا الحديث بقوله : وفي الحديث جواز احتفاده صلى الله عليه وسلم ، وبه قال جمهور أهل الأصول .

وأيضاً هنا في صورة العزم وعدم الفعل يشق على الإنسان تحديد وقت العدول عن تنفيذه صلى الله عليه وسلم ما هم أن يفعله ، للسبب الذي ذكرناه فيما سبق .

مابرا منه اجتفاده في صورة « الطلب » :

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : نعمنا صلى الله عليه وسلم في نعمت ، فقال :

- ١ - « إن لقيتم فلاناً وفلاناً - لرحلين من قريش ساهما - فحرقوها بالنار ،
- ٢ - ثم آتيناه نودعه حين أردنا الخروج ، فقال : إني كمت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار ، وإن النار لا يعذب بها إلا الله ، فإن أخذتموها

فاقتلوهما . وفي رواية ابن إسحاق : « . . . ثم رأيت أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله » (١) .

ويعلق الحافظ بن حجر بقوله : وفي الحديث جواز الحكم بالشيء احتهاذا ثم الرجوع عنه .

ويروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه قال : كنا قعوداً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم — معنا أبو بكر وعمر في نفر — فقام صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا فأبطأ علينا ، وحسبنا أن يقتطع دوننا ، وفرعنا ، فقمنا ، فسكنت أول من فزع حتى أنبت حائطا للأنصار لبي النجار فدرت حوله حتى دخلته

[١] قال الحافظ بن حجر في التعليق على هذا الحديث : وفي رواية ابن إسحاق : « إن وحدثم همار بن الأسود والرجل الذي سبق منه إلى رينب ماسبق فحرقوهما بالنار يعني صلى الله عليه وسلم رينب بنته ، وكان روحها (أبو العاص بن الربيع) أسير يوم بدر ثم أطلقه صلى الله عليه وسلم برجع إلى مكة وأخذ عليه عهداً أن ترك رينب تهاجر . فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح رينب بعد أن جهرها : فتبعها همار بن الأسود وناعم بن عبد قيس فحسبا بغيرها فسهطت ومرصت من ذلك : فبعث صلى الله عليه وسلم سرية ، وقال : « إن وحدعوها فاحملوهما بين حرمتين من حطب ثم أشعلوا فيهما النار . . . » ثم قال بعد ذلك إنى لأستحي من الله . لا بدعى لأحد أن يعذب بعداب الله ! » .

واستطرد الحافظ في التعليق ، وقال : وقد أسلم همار هذا فلم تصبه السرية وأصابه الإسلام فهاجر وعاش إلى خلافة معاوية . أما رفيقه فلعله مات قبل أن يسام : إذ لم يظهر له بعد ذكر .

فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أوهريرة ؟ قلت : نعم
يارسول الله ! قال : ماشأذك ؟ قات : كنت بين أظهرنا . . وذكر ما حصل .
فقال صلى الله عليه وسلم : ياأنا هريرة ! .

١ - اذهب ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لاإله إلا الله
مستيقناً بها قلبه فشره بالجنة .

وكان أول من لقيت عمر . فسألتى فقلت : نعمى رسول الله صلى الله
عليه وسلم : من لقيت يشهد أن لاإله إلا الله مستيقماً بها قلبه بشرته بالجنة .
فضرب عمر بيده بين تديى فحررت لاسقى ، فقال : ارجع ياأنا هريرة !
فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحেষت بكاء ، وركبى عمر ، فإذا
هو على إثرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك ياأنا هريرة ؟ قلت :
لقيت عمر فأحبرته بالدى نعمتنى به فصرى بين تديى ضربة حررت لاسقى ،
قال ارجع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمر ! ماهلك على ما فعلت ؟
قال : يارسول الله ! بأى أنت وأمى ! أنعت أنا هريرة من لقى يشهد أن
لاإله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة ؟ . قال : نعم ! . قال : فلا نفعل ،
فأبى أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون ! ،

٢ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخلهم ! «

وأيضاً في قصة زيب بنت ححش وزيد بن حارثة ، عند ما نوحه زيد هدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تطبيق زيب لسب ذكره له ، ١ - فقال الرسول الكريم لزيد : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » .

٢ - معارسة الله على ذلك بقوله : [وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ...]^(١) ، فرجع عما أمر به ريداً مولاه .

وبود من باب الاستطراد أن نذكر كلمة تتعلق بهذا الحادث ، نظراً لما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ غير مقصود في تفسير هذه الآية الكريمة واتحده المبشرون وأعداء الاسلام مرتعاً حصيلاً للتصيل وشويه الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يكون أمام القارئ لهذه الرسالة مايساعده على رد كيد الكائد لدينه .

روى ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن آية [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ]^(٢)

[١] آية ٣٧ من سورة الأحزاب .

[٢] آية ٣٦ من نفس السورة السابقة .

نزلت في زينب بنت جحش لما خطبها صلى الله عليه وسلم لزيد مولاه فأبت ،
فأنزل الله الآية ، فقبلت طوعاً لأمر الله . قال الألوسي في تفسيره تعليماً على
هذه الآية : وكان عرصه صلى الله عليه وسلم عليها زواج مولاه زيد إلهاماً من
الله ، أو وحياً ، ليسكون بعد وسيلة لما تلاه من التشريع .

وحاصل قصة « زينب وزيد » على ما أخذ من شرح البخارى والتفسير :
أن المعروف أن الولد إما :

(١) ولد نسب ،

(ب) أو ولد رضاع ،

(ح) أو ولد تبى مع معرفة الأب ،

(د) أو ولد سمى مع عدم معرفة الاب .

وكانت العرب حرت في عاداتها أن لا يتزوج الرجل زوج ولده ، أيأ كان
الولد من هذه الأنواع الأربعة .

ولما جاء الاسلام أباح أن يتزوج الرجل امرأة متبناه ، المعروف الأب إذا
طلقها ، أو مات عنها . وكانوا يسمون هذا « دعى فلان أو متبناه » .

ولما كانت عوائد العرب في مسائل النكاح حساسة جداً في هذه
الناحية وأراد الله إبطال عاداتهم هذه بتشريع مبيح على وجه ملزم بالحل

لكل من تحدّثه نفسه بالتخلل منه ، أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يزوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة ، وأنه إذا طلقها زيد بعد ذلك يتزوجها صلى الله عليه وسلم ليبطل تلك العادة بنفسه هو حتى نكون قوة القدوة ماحقة لقوة العادة . ولهذا كانت العناية الإلهية بهذا الموضوع ظاهرة في هذه السورة - الأحزاب - من أولها . وقد نزلت في السنة الخامسة من الهجرة ، على ما قال ابن الأثير ، وحاء في أولها تمهيداً لهذا التشريع العظيم الذي حارب عادة نأصلت في نفوس العرب من قرون طويلة قوله تعالى : [مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي حَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ . ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ، ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ . . الخ ^(١)] .

وقال تعالى في موضوع الحادث : [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً . وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

[١] آيتا ٤ ، ٥ من السورة السابقة .

وَتَحَنَّنَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَا كَتَمًا لِكَيْلَا يَكُونَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا
فَصَّوْا مِنْهُمْ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ
فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مُقَدُّورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا
اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ
رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ^(١)]

ويعلق الحافظ بن حجر على ذلك بقوله : أخرج ابن أبي حاتم هذه
القصة من طريق السدي ، فقال : إن هذه الآيات رأت في زيب بنت
جحش - وكانت أمها أمة بنت عبد المطلب ، عمه رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وكان خطبها صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة ، وقال لها :
«إني أريد أن أروحك زيد بن حارثة ، فإني فدرضيته لك» فأبت ، وقالت :
يا رسول الله ! لكنني لا أرضاه لنفسى ، وأنا بنت عمك فلم أكن لأفعل -
وفي رواية أمها قالت : وأنا خير منه حسبا - ووافقها أحوها عبد الله على
ذلك ، فبرل قوله تعالى : [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ .. الآية] .

ويقول ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : لما نزلت الآية رَضِبْتُ هِي وأُحْوَهَا ، فَأَنكِحَهَا صلى الله عليه وسلم زيداً ؟ وساق إليها عشرة دنانير وستين درهماً مهراً مع أشياء أخرى من طعام ولباس .

ولما كان هذا الزواج غير طبعى لما علمت من مكانها ومكانه ، ومن رعتها عمه وأبنتها وتواضعه هو وانكساره كان ما لا بد منه عادة . وقد جاء زيد إليه صلى الله عليه وسلم يوماً ، وقال يا رسول الله ! : إن زينب قد اشتدت على لساني ، وأنا أريد أن أطلقها . فقال له صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » ، فأنزل الله آيات الأحزاب السابقة^(١) معانداً له

[١] والمفسرون يسرحون هذه الآيات فيذكرون [وإذ تقول للذي أكرم الله عليه] بالاسلام ومعمله تحت رعايتك [وألعمت عليه] بالمعق وبالترمة الحسنة [وتحفى فى نفسك ما الله مبديه] الذى أحفاه صلى الله عليه وسلم على ما أخرجه الترمذى وغيره عن على بن الحسين : هو ما أوحى الله تعالى به إليه أن يتزوجها بعد طلاق زيد لها ليتحقق التشريع المطلوب .

هذا ما ذهب إليه محققو المفسرين كالهرى ، ونكر بن العلاء ، والقشيري ، وأبو بكر ابن العربي ، وغيرهم . وقالوا : ويكون حاصل العتاب . لم قلت : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ؟ » ، وقد أمرتك أن تتزوجها بعد طلاقها وعدتها . وهذا المعنى هو المطابق للحاصل من سياق الآيات ، لأن الله تعالى يقول : [وتحفى فى نفسك ما الله مبديه] والله لم يظهر شيئاً كان حافياً سوى رواحه صلى الله عليه وسلم بها ، وقال : [روحنا كما لا يكون على المؤمنين حرج فى أرواح أعدائهم ...] فلو كان المصمر المحمة كما يقول المعتزون والجاهلون لما صبحت الآية ، لأن الله لم يظهر هذه .

على قوله هذا ، ولم يجبه إلى ما أراد ، وهو أن لا يكون المباشر في إبطال العادة المذكورة .

== ونقول نحن : والذى يظهر أنه صلى الله عليه وسلم قال ما قال من شدة حياته صلى الله عليه وسلم وخوفه من قالة سوء يطلعها المنافقون والمرحفون في المدينة ، وقد كانوا كثيرين يتربصون مرتعا يحبون فيه ويقفون من سموم الشكوك ما يطيقون . ورأى صلى الله عليه وسلم أن في موقفه هذا أمنا على المسلمين من شر فتنة ، خصوصا من كان قريبا عهدا لإسلام مهم . والظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان يرجو من الله أن يعفيه من أن يكون هو القدوة العملية في هذا المبدأ ، وأن هذا التشريع لا يتوقف بماده واشهاره على أن يكون هو نفسه البادئ به ، وبذلك تتحقق المصلحة في نظره صلى الله عليه وسلم ويسد باب الفتنة . فهو لا يعمد أن يكون احتيادا منه صلى الله عليه وسلم أظهره الله على أن غيره هو الصواب .

وقد قال الحافظ بن حجر : والحاصل أن الذى كان يحفبه صلى الله عليه وسلم في نفسه هو أنها ستكون روحته ، والذى كان يحمل على إحياء ذلك خشية قول الناس : تروح امرأة الله . وأراد الله إبطال هذه العادة بأمر لا أبلغ في الإبطال منه ، وهو وقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم .

ومثل هذا ما قاله الحافظ على الشفاء ، وعبارته : والظاهر أن الله تعالى لما أراد إسح تحريم روحه المتبى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم أن يتروح ربنا إذا طلقها ريد ، فلم يبادر صلى الله عليه وسلم بحافة طعن الأعداء فموتت على ذلك .

أحبر مسلم والترمدى عن عائشة وأنس - قالا - لو كان محمد كاتما شيئا من الوحي لكنتم هذه الآية : [وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ... إلى قوله - وتحصى الناس والله أحق أن تحشاه] .

ويستطرد المفسرون في الشرح ، فيقولون : [ما كان على النبي من حرج فيما فرس الله له] معناه ما صح أن يكون عليه صيق ولا لم فيما قسم الله له . قال الرابع : لأنحد من عمادك نصيبا مقروصا أى مقطوعا متميزا عن غيره ، معلوما ، وقال : كل موضع ورد =

لكن أكانت هناك فترة من الزمن بين أمره الذى عنون له بقوله :

« فى القرآن » درس عليه « فى الإيجاب » ، و « درس له » فهو فى ألا يحطره على نفسه ومه فال فتادة فى معنى الآية : أى فيما أحل الله له ، [سة الله فى الدين حلوا من قبل] . أى من قبلك من الأنبياء حيث لم يجرح حل شأنه عاينهم فى الإقدام على ما أحل لهم ووسع عاينهم . [الذين يباعون رسالات الله] صفة للذين حلوا من قبل من الرسل [ويحشونه ولا يحشون أحداً إلا الله] قال المفسرون . فى وصفهم بقصرهم الحشية على الله تعريض بما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من الاحمرار عن لائمة الناس من حيث إن احواه المراسين لم تسكن سيرتهم التى تسعى الاقتداء بها ذلك ، وهذا كالأ كيد لما تقدم من التصريح فى قوله : [وتحشى الناس والله أحق أن تحماه] .

[ما كان محمد آنا أحد من رجالكم] رد لمشأ حشيتة صلى الله عليه وسلم للناس المعان عليها ، وهو قولهم : أن محمداً تروح امرأة امه ، فقد رد كون ريد امه الذى تحرم روحه على أبلغ وجه ، والأبوة الممه هما هى الأبوة الحقيقية السريعة ، سواء أكانت بالولادة أم بالرضاع ، أم تبنى من بولد مثله لثله وهو مجهول النسب ، ومن المعلوم عندهم أن ريدا من رجالهم فليس له صلى الله عليه وسلم عله أى أبوة من هذه . [ولكن رسول الله] صلى الله عليه وسلم ، لما كان من المشهور أن كل رسول أب لأمة فيما يرحم إلى وجوب تعظيمه وبوقيره ووجوب الشفقة والصيحة لهم عليه ، وكان بنى الأبوة على الاطلاق رعا تعدى إلى ذلك ، اسمدرك على ما يوههم من بنى الرسالة ناشأتها تسها على أن الأبوة الممه شىء والمشته شىء آخر . فحصل الكلام اسمدرك بعد بنى الأبوة الحقيقية الشرعية بإثبات الأبوة المحاربة اللعوية التى هى من شأن كل رسول ، وبذلك بنى يوههم الملائمة بين الأبوتين [وخاتم النبيين] حتى به مشيراً إلى كمال نصحه صلى الله عليه وسلم وشقيقته عليهم ، وأن أبوته لأمة فوق أبوة كل رسول لأمة ، وذلك لأن الرسول الذى يشعر بأن بعده رسول رعا لا يطلع فى الشفقة عايتها ، وفى الصيحة نهايتها اتسكالا على من يأتي بعده ، كالوالد الحقيق الذى يعلم أن لولده من بعده من يقوم بشأنه مقامه . والله أعلم :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » وبين عتاب الله جل شأنه له الذى بدا فى قوله :
[وَتُخْفِمِ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُنْدِرِهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ]
أم كان وقوع العتاب فور صدور هذا الأمر منه صلى الله عليه وسلم ؟ يتوقف
تحديد ذلك على الثبت التاريخى .

ما بدا من اجتهاده فى صورة « الإذن » :

ثم هنا أيضاً رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وبدا رأييه فى صورة
« إذن وتسوية » لشخص أو نفر من الناس ، ثم رل الوحي بتعديل رأيه :

١ — وفى حين استأذن بعض المنافقين النبى صلى الله عليه وسلم التخلف
عن غزوة تبوك فأذن لهم على ضعف أعذارهم — وتخلف من المؤمنين آخرون —
فأنزل الله فى الجميع آيات نزلت أثناء سفره صلى الله عليه وسلم فى نفس الغزاة ،
وهى قوله تعالى : [لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكَ وَلَكِنْ
نَعَدْتُ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ ... الخ ^(١)] .

٢ — وعاتبه سبحانه وتعالى على إيدته لهم بذلك ، إذ وحى إليه الخطاب

بقوله : [عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ لَكَ الدِّينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ السَّكَادِينَ ^(١)] .

والمنازل في تفسير هذه الآية الكريمة يقول : [عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ] العموم التجاوز عن الدب والتقصير ، وترك المؤاحدة عليه : [لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ] أى هلا استأنيت وتريزت بالإذن حتى يتبين لك الصادق في الاستئذان والكاذب الذى قرر التخلف أذنت أم لم تأذن ، فتعلق [حتى] مفهوم من السياق . ثم يستطرد فيقول إن الزمخشري أساء الأدب في تفسير العموم ^(٢) . ويقول : إن المحرر الراى في تفسيره حاء على الطرف الآخر محاولاً إثبات أب

لا ذنب ^(٣) ثم قال : وما كان للمفسر الرزى ~~وهو من جلبها يرى أن الفخر الراى ما كان مثله أن يهرب من إثمات~~ ما أثبتته الله في كتابه في عدة مواضع لأنباء كثيرين - بينما صلى الله عليه وسلم واحد منهم - تمسكاً باصطلاحات وعرف ^(٤) مستحدث في « الذنب » مخالف لمدلول اللغة فالدب في اللغة : كل عمل يستتبع ضرراً أو يهوت مصلحة ،

[١] آية ٤٣ من السورة السابقة ، ونزلت هي وغيرها في هذه السورة في شأن عروة تنوك ، وهي « عزوة العسرة » المشهورة بشدة الحر وبعد الشقة ، وكانت في رحب سعة تسع من المحرة

[٢] عبارة الزمخشري : [عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ] كناية عن الحمايه لأن العموم مرادف لها ، ومعناه : أخطأت ونسئ ما فعلت . [٣] إذ يرى أن العموم إنما هو لمخالفة الأولى فقط .

[٤] هو مرادة الدب المعصية .

مأخوذ من « ذب الدابة » وليس مرادفا المعصية ؛ بل أعم منها ، والاذن المسموع عنه هنا قد فوت المصلحة المنصوص عليها في الآية ، وهي علم جميع الناس بالصادق والكاذب من هؤلاء المتحلفين . وكان المطلوب ألا يأذن صلى الله عليه وسلم لهم حتى يفتصحو على رؤوس الأشهاد ، وحتى لا يسهجوا ولو قليلا بأهم غرورا به صلى الله عليه وسلم وأضاهوه بالكذب . وقد نسب الله للنبي صلى الله عليه وسلم الدسب في موضع آخر من كتابه العزيز ، فقال : [وَأَسْتَمِعُ لِدَنِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] .

وقد كان « الإذن » المعاتب عليه هنا احتماذاً منه صلى الله عليه وسلم فيما لا نص فيه من الوحي وهو جائز على الأنبياء وأيسوا معصومين من الخطأ فيه ، فقد كان الأولى منه صلى الله عليه وسلم أن يؤخر الإذن لهؤلاء المنافقين حتى يفتصحو من أنفسهم .

١ — وفي حين آخر يروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سراحيل الشعبي عن فاطمة بنت قيس — وكانت من المهاجرات الأول — قالت : نكحت ابن المغيرة ، وهو من خيار شياب قريش يومئذ ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما تأيمت خطبى عبد الرحمن بن عوف ،

وحطبنى صلى الله عليه وسلم على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحبني فليحب أسامة » ولما كلمني صلى الله عليه وسلم قات : أمرى بيدك فأكحنى من شئت . فقال : « انتقل إلى أم شريك » .

٢ — فقلت : سأفعل فقال : « لاتفعل ! إن أم شريك امرأة كثيرة الصيفان ، وإني أكره أن يسقط عنك حمارك ، أو يكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض مانكرهيه ، ولكن انتقل إلى ابن عمك عبد الله بن أم مكتوم . . . فانتقلت إليه . . . الخ (١)

وفي مقام ثالث يروى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص أن وفد تقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشترطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يحشروا (٢) ، ولا يعشروا (٣) ولا يحبوا (٤) ، ولا يستعمل عليهم غيرهم

[١] وفي روايه : « تأيئت وكان بنى في مكان حال فحمت أن أعمد فيه (١) فدخلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم في القلة إلى موضع آخر ، فأمرني أن أعتد في بيت أم شريك

(ب) ثم رجع صلى الله عليه وسلم فقال : « إن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون فانطلق إلى ابن أم مكتوم الأعمى فانك إذا وصعت حمارك لم يرك [٢] أى لا يبدون إلى المعارى . [٣] أى لا يؤخذ منهم عشر أموالهم [٤] أى لا يصلوا

١ — فقال صلى الله عليه وسلم : « لکم أن لا تحشروا ولا تعشروا ، ولا يستعمل علیکم غیرکم ، ولا حیر فی دین لا رکوع فیہ » .

ویروی أبو داود عن حابر أنه یقول : اشترطت ثقیف علی رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة علیها ، ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم یقول بعد ذلك :

٢ — « سیصدفون ، ویجاهدون » ^(١) .

وأولاً أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم إخراج الزكاة ، وعدم حروصهم إلى الجهاد . وهما أمران لا يقدم عليهما إلا النفس المؤمنة ، المطمئنة في إيمانها ، إذ المال والنفس في مقدمة ما يحرص عليه الإنسان ويبدل حاهداً دون أن يفقد واحداً منهما ، ولا سبيل إلى التغلب على هذا الطمع الشرى إلا بالإيمان

[١] قال في الأساس : وأما حديث بشير بن الحصاصية حين ذكر له صلى الله عليه وسلم شرائع الإسلام فقال أما اتان منها فلا أطعهما : الصدقة والجهاد فكسب صلى الله عليه وسلم يده ، وقال « لا صدقة ولا جهاد ! » ثم تدخل الحة ؟ « ولم یحتمل صلى الله عليه وسلم لبشير ما احتمل لثقیف . وشبه أن یكون لما لم یسمح صلى الله عليه وسلم لبشير لعلمه أنه یقل إذا قل له ما قبل ، وثقیف كانت لا تقبله في الحال . وأیضا هو واحد وهم جماعة ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن یألفهم ویدرجهم على الإسلام شیئاً فشیئاً

بأعز منهما، والله سبحانه وتعالى لدى المؤمن به حقا أعز من النفس ، والمال ،
والولد ، والحياة الدنيا كلها .

ثم هو صلى الله عليه وسلم ثانيا يرقب مهم أن يؤدوا الزكاة ويخرجوا إلى
القتال بدافع الإيمان ، دون احتياج إلى نصيحة أخرى منه ، إن آمنوا وتغفل
الإيمان في قلوبهم .^(١)

وهذا شأنه صلى الله عليه وسلم يتدرج القوم رويداً رويداً ، ويلين لهم
من جانبه ويتساهل في مطالمة تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد ، حتى إذا
وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعب على النفس وعلى المألوف في
عاداتهم ويتحملون المشاق في كل جانب من جوانب حياتهم في سبيل نصرته
فما آمنوا به واستمروا بقائهم عليه .

ومما يدخل في هذا الباب للغاية نفسها ما يرويه أبو داود عن عبد الله بن
«صالة عن أبيه ، قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما علمني :
« وحافظ على الصلوات الخمس ! » . قال : قلت : إن هذه ساعات لي فيها
اشتغال ، هربني بأمر جامع إذا أنا فعلته أجزأ عني ، فقال :

(١) كما في رواية أبي داود عن جابر المتقدمة .

١ — « حافظ على العصرين ! » — وما كانت من لغتنا — فقلت : وما العصران ؟ فقال : « صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها » ^(١) .

ويروى أحمد في مسنده عن بصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لا يصلى إلا صلاتين ، فقبل ذلك منه . ويعلق الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصارى الحنفى النقشبندى فى شرحه « بذل المحمود فى شرح سنن أبى داود » على رواية أحمد هذه بقوله :
فظهر بدا أنه أسقط عنه ثلاث صلوات . فكان من خصائصه صلى الله

[١] ويروى أبو داود أنصاءً ، ومسلم ، عن أبى بكر بن عمارة بن رؤية عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لى يلج النار رجل صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعنى العصر والعصر .
ويعلق عليه الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصارى الحنفى النقشبندى فى شرحه : [يدل المحمود فى شرح سنن أبى داود] بقوله : « لا يلج النار » أى لا يدخلها أصلاً للتعديب أو على وجه التأيد .

كما يعلق على رواية أبى داود عن عبد الله بن فضالة بقوله : قال [فى درجات المراقبة] : قال ولى الدين : هذا الحديث مشكل سادى الرأى . لإدبوم لإجراء صلاة العصرين لى له شغل عن غيرها ، فقال البيهقى فى تأويله — وأحسن — : كأنه أراد — والله أعلم — : حافظ عليها لأول أوقاتها ، فاعتذر بأشغال مقتضية لتأخيرها عن أولها ، فأمره بالمحافظة على الصلاتين — العصر والفجر — لأول وقتها .

لكن تأويل البيهقى على هذا النحو يبعد أن يكون الحديث تصويراً للرأى اجتهدى من الرسول صلى الله عليه وسلم يتصل بالتحذير على الداخلين فى الاسلام ، أملاً فى أن يعودوا فيما بعد إلى الوضع العام الذى التزمه كل المسلمين . والبيهقى بذلك مخالف حديث بصر بن عاصم عند أحمد ورأى « المتح » و « الشوكانى » الآتى بعد فى صفحة ٩٩ .

عليه وسلم أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام ؛ ويسقط عن شاء ما شاء من الواجبات .

والظاهر أن هذا الرجل المبهم في حديث أحمد بن حنبل هو فضالة الذي في حديث أبي داود ، فإنه لیتی ، وبصر بن عاصم لیتی .

وقد ترجم الفتح الرباني لحديث مسند أحمد هذا بقوله : « فصل في ترغيب المشركين في الاسلام وتأليف قلوبهم » ، وترجم له الشوكاني بقوله : « باب صحة الاسلام مع الشرط الفاسد » ^(١) .

[١] ويقرب من هذا في تيسيره صلى الله عليه وسلم الدين على الداخلين فيه باحتماده مارواه أبو داود ، والبخاري ، وابن سعد ، وابن حبان والحاكم في صحيحهما عن أبي سعيد : أن امرأة صفوان بن المعطل (تشديد الطاء مفتوحة) جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يا رسول الله ! إن زوجي يصربني إذا صليت ، ويفطرنى إذا صمت ، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس . قال — وصفوان عنده صلى الله عليه وسلم — فسأله وقال : أما قولها : يصربني إذا صليت فإنها تقرأ سورتي [يريد آيات قصة الاوك من سورة النور ، لأنه هو الذي جل السيدة عائشة رضى الله عنها على حمله ولحن بالركب] وقد هبت عنها ، وأما قولها : يفطرنى إذا صمت فأنا رجل شاب لا أصبر ، وأما قولها : لا أصلي حتى تطلع الشمس فإننا أهل بيت قد عرف لنا ذلك فلا نستيقظ حتى تطلع الشمس .

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على هذه الرواية : إن رجال هذا الحديث من رجال الصحيح ، ولم يعلم أن أحدا نقل أنه صلى الله عليه وسلم رد على صفوان نسي . فلعن سكوته صلى الله عليه وسلم عنه كان من تمام رعيه في الاسلام وتيسيره عليه علما منه صلى الله عليه وسلم أنه سيحافظ فيما بعد على سبه وآدابه ، كما قال في وفد ثقيف : « لهم سيفعلون » كما تقدم .

٢ — لكن قبوله صلى الله عليه وسلم من فضالة الاقتصار على صلاة العصرين كان قبولاً مؤقتاً ، أملاً في أن يصبح فيما بعد كبقية المسلمين يؤدي من فروض الصلاة ما يؤديه غيره .

وكان ما يترقبه الرسول صلى الله عليه وسلم هنا من فصالة — بعد أن يتمكن الإيمان من قلبه — تعديلاً لما أذن له من إحزاء صلاة العصرين عن اليوم كله أول الأمر .

وكذا ما في رواية البخارى عن أم عطية من أمها قالت : بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا : « أن لا يُسر كنَ بالله شيئاً » ونهانا عن « النياحة » فقمصت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتى ^(١) فلانة فأريد أن أحزيبها ،

١ — فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئاً ^(٢) فاطلقت ،

٢ — ورجعت فبايعها .

وفي رواية النسائي . . . قال :

١ — فأذهبي وأسعديها ، فذهبت فساعدها ،

[١] قال الحافظ : الإسعاد قيام المرأة مع الأخرى في الساحة تراسلها ، وهو خاص بهذا المعنى ، ولا يستعمل إلا في المساعدة على السكاء .

(٢) وفي رواية عاصم : . . . فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا آل فلان » .

٢ - سم حثت فبايعت .

قيل في تعليل هذا : الترخيص كان خصوصية لأم عطية ، وقيل : إن ذلك كان قبل تحريم النياحة .

ورد القرطبي هذا التحريج الأخير - ووافقه الحافظ ابن حجر - وقال : دعوى أن ذلك كان قبل تحريم النياحة فاسدة لمساق حديث أم عطية . فلو لا أنها فهمت التحريم لما استفتت . وأيضاً أم عطية نفسها صرحت بالمعنى عن النياحة .

ويرد - أيضاً - دعوى كون ذلك خصوصية لأم عطية بثبوت مثل ذلك لغيرها : فقد أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء فبايعهن أن لا يُشركنَ بالله شيئاً ، قالت حولة بنت حكيم : يا رسول الله ! كان أبى وأخى ماتا فى الجاهلية وأن فلانة أسعدنى وقد مات أحوها ... الحديث . وأخرج الترمذى أيضاً عن أم سلمة الأصبارية - وهى أسماء بنت يزيد - قالت : قلت يا رسول الله ! إن بنى فلان أسعدونى على عى ولا بد من قضائهن ، فأبى . قالت : فراجعه مرارا فأذن لى ، ثم لم أبح بعد . وأخرج أحمد والطبرى كذلك - من طريق مصعب بن نوح - قال : أدركت عجوزا لنا كانت فيمن يابيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قالت : فأخذ علينا ... ولا ينحن ، فقالت : عجوز : يا نبي الله ! إن ناساً كانوا أسعدونا على مصائب أصابتنا ، وأهم قد أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أن أسعدهم ، قال : « فاذهي فكافئهم » . قالت : فانطلقت فكافأتهم ، ثم أتت فبايعته .

ولم يبق بعد رد القرطبي لما سبق من تحريج الحديث على أن الإذن بالنياحة كان قبل تحريمها - إلا أن يكون الحديث معبراً عن اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم بنية تيسير الإسلام على من دخل جديداً فيه معتمداً على أنه سيكون في سلك بنية المؤمنين بعد أن يتمكن نور الإسلام من قلبه .

فقد أذن صلى الله عليه وسلم هنا بالنياحة - وهي أمر غير مرغوب فيه - وإذنه بذلك مؤقت ، والإذن المؤقت ينطوي على معنى العدول عن استمراره واعتباره قاعدة عامة .

ما برأ منه اجتهاده في صورة « الدعاء » :

وهذه صورة أخرى من الصور الكثيرة التي بدا فيها اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بمعنى العبادة^(١) ، وهي صورة الدعاء على بعض

(١) فقد ورد : « الدعاء مخ العبادة » .

الناس من كافرين ومؤمنين لما وقع منهم من أحداث أثارَت دخيلة نفسه عليه السلام

١ — فالبخارى — ويوافقه في الرواية أحمد والترمذى والنسائى — يروى عن ابن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لما جرح وكسرت رباطيته^(١) ورأى تمثيل الكفار بعمه حمزة وبالمسلمين : « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » . فتصرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم ويسجل عليهم سخطه .

٢ — وفي إثر ذلك نزلت هذه الآية : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ^(٢) » .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعا عليهم وطلب من الله أن يلعنهم كان ذلك عن اجتهاد منه . لكن لم يقره الله سبحانه وتعالى على اجتهاده إذ نهاه عما طلب بقوله الكريم في هذه الآية السابقة ، على رأى من يرى من

[١] الرباطية بفتح الراء هى التى بين الثنية والناف . وأراد تكسرها أنها ذهبت منها فلقه ولم تقلع من أصلها . والرباطية التى كسرت منه صلى الله عليه وسلم هى السفلى اليمى .
[٢] آية ١٢٧ من سورة آل عمران .

المفسرين أنها نزلت في شأن أحد . ومن هؤلاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .
ويعمل ما أتجه إليه بقوله فيما نقل عنه من تفسير للقرآن الكريم : ما قبل
الآية وما بعدها^(١) في قصة أحد ، فيجب أن يكون الكلام كله في أحد صوما
للقرآن عن تكلف يزه عن مثله كلام الله .

[١] الآية التي قبلها : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتنهم فيقلبوا خائبين » ،
والتي بعدها قوله تعالى : « ولله ما في السموات وما في الأرض يعفر لمن يشاء ويعذب من
يشاء والله غفور رحيم » .

وبعض آخر من المفسرين يرى في سبب نزول الآية أنها كانت في دعائه صلى الله عليه
وسلم على أصحاب بئر معونة — وكانت بعد أربعة أشهر من أحد — ودعا عندها على رعل
ودكاوان وعصية . . . الخ .

ومعنى قوله تعالى « ليقطع » ذهب بعض المفسرين إلى أنه متعلق بقوله : « ولقد نصرم
الله بدر » ، واختار بعضهم أنه متعلق بمفهوم من المقام متعلق بواقعة أحد المقصودة
بالسكلام بالذات لأن ذكر بدر إنما جاء استطراداً . ويكون المعنى : فعل الله ما فعل ليقطع
طرفاً أي يهلكهم .

ومعنى قوله حل شأنه « أو يكتنهم » — كما يقول البيضاوي — يحريمهم . والسكت شدة
الغيظ أو وهن يقع في القلب . وقوله « ليس لك من الأمر شيء » اعتراض بين المعطوفات .
وقوله « أو يتوب عليهم » معطوف على يكتنهم . ومعنى « أو يعذبهم » هو بما أعد لهم
في الآخرة من عذاب أليم ، والمراد تعذيب هذا الفريق هو التعذيب الشديد جداً المخصوص
بأشد الكفرة كفراً ، وإلا فطلق التعذيب الأخرى محقق في الفريقين الأولين . « أو »
في الآيات للتوبيخ لا للتريديد . والمعنى كله : أنه يقطع طرف طائفة ، ويكت طائفة أخرى ،
ويتوب على طائفة ، ويعذب أخرى عذاباً أكبر .

ومعنى « ليس لك من الأمر شيء » : ليس إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تغد فيهم
أمرى ، وتنهى فيهم إلى طاعتي ، إما أمرهم بعد ذلك إلى والقضاء فيهم بيدي دون غيري ،
أقصى فيهم وأحكم بالذي أشاء حتى بالتوبة على من كفر بي . . . الخ .

ثم هذا مثل آخر لهذه الصورة من صور اجتهاده صلى الله عليه وسلم ،
وهى دعاؤه على بعض المؤمنين :

١ — مسلم يروى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخل
على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان فكلاماه بشيء لا أدرى ما هو
فأغصباه فلعنهما وسبهما — وفى رواية فخلوا به فسبهما ولعنهما وأحرحهما — فلما
حرجا قلت يا رسول الله ما أصابا من الخير شيئاً ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت :
لعتنهما وسببتهما ، قال : أو ما علمت ما شارطت رضى عليه ؟ ،

٢ — قالت : اللهم إنما أنا بشر ، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاجعله
له زكاة وأحراً .

فالرسول عليه السلام كما يؤخذ من هذه الرواية قد سلك مسلك الإنسان
العادى يغضب ويلعن لأمر يثير نفسه ، ثم يعود فيرجع ويطلب من ربه
— شفقة ورحمة — أن يجعل الدعاء على من دعا عليه من المسلمين دعاء له بأن
يكون زكاة وأحراً له . وفى هذا يروى مسلم عن أنى هريرة أنه قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب
البشر وإنى قد اتخذت عندك عهداً أن تخلفنيه : فأيا مؤمن آذيته أو سببته
فاجعلها له كفارة وقربة تقر به بها إليك يوم القيامة » .

ونحن في إسنادنا الاجتهاد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لا نبغى أكثر من أن نقرر أنه صلى الله عليه وسلم بشري يحوز عليه ما يحوز على البشر، فيما عدا ما خصه الله به من رسالة فهو فيها معصوم وقوله فيها قول الحق جل جلاله^(١).

ما بدأ من اجتهاده في صورة تفضيل الترك على الفعل :

وهذا نوع آخر غير ما تقدم من الأمثلة التي تدل على اجتهاده صلى الله عليه وسلم وبالتالي على أنه بشري إلا فيما عصمه الله فيه في دائرة الرسالة والتبليغ، وهو اجتهاده عليه السلام في صورة تفضيل الترك على الفعل . فيروى عنه صلى الله عليه وسلم في « تلقيح النخل » أنه نصح لهم بعدم تلقيحه اجتهاداً منه

[١] ويشبه هذه الصورة الأخيرة ما يرويه مسلم أيضاً عن أنس بن مالك ، قال : كانت عند أم سليم يتيمة . رأى صلى الله عليه وسلم اليتيمة فقال : أنت هيه - أنت هيه بمد الهمزة وتنج الياء استفهام على معنى التعجب وكأنه (ص) رآها قبل ذلك صغيرة ثم عابت عنه مدة درآها قد كبرت وتعجب من سرعة ذلك . ودعاؤه عليها من الدعاء الجاري على اللسان من غير قصد - ؟ لقد كبرت ! لا كبرت منك . فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي فقالت أم سليم : مالك يا بنية ؟ قالت الحارثية : دعا على صلى الله عليه وسلم ألا يكبر سبي أبداً . فخرحت أم سليم مستعجلة تلوث - تلوث أي تديره على رأسها - حمارها حتى لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : مالك يا أم سليم ؟ فقالت يابني الله أدعوت على يتيمتي ؟ قال : وما ذاك يا أم سليم ؟ قالت : رعبت أنك دعوت ألا يكبر سبي . قال : فصحك صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أم سليم ! أما تعلمين أني اشتطت على ربي فقلت لعنسا أما بشر أرضي كما يرصى البشر وأعصب كما يفصب البشر ، وأما أحد دعوت عليه من أمي بدعوة ليس لها نأهل أن يجعلها له طهوراً وركاة وقرية تقربه بها يوم القيامة . قال القرطبي : والحديث يدل على أن الصغار والكنار كان معلوماً عندهم بقول دعائه (ص) ولذا قرعت أم سلم من دعائه على جارتها . وبكت اليتيمة لما سمعت دعاءه عليها .

بأن في ذلك مصلحته . ولما نفصت غلته فيما بعد بسبب عدم تلقيحه وذكروا له ذلك قال : « إنا أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . يرويه مسلم في صحيحه ^(١) عن رافع بن خديج . ونص الرواية : قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كما يصنعه ! قال : لعنكم لو لم تعملوا كان حيرا ، فتركوه فنفصت قال فذكروا ذلك له صلى الله عليه وسلم فقال : إنا أنا بشر . . الخ .

وفي رواية أحمد : ما كان من أمر دينكم فإلى وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به .

وفي رواية أخرى لمسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : سررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحونه يحملون الذكر في الأثني فيتلحق ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أظن يغني ذلك شيئا ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنني إنما ظننت ظننا

[١] في باب : وحب امتثال ما قاله صلى الله عليه وسلم شرعاً ، دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي .

ولا نؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل . »

وفى رواية ثالثة له أيضاً عن عائشة وأنس أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يلحقون النحل فقال : لولم تفعلوا لصلح ، فخرج شيصاً ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

وأياً كانت صيغة الرواية عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك فقد رأى رأياً فى صورة ما — هى هنا صورة تفصيل الترك على الفعل — تمين له فيما بعد خلافه بحكم ما صار إليه الأمر فى الواقع . ولما كان الذى رآه عليه السلام هنا لم يحقق مصلحة لقومه بل جلب مضرة لهم اعتذر من ذلك واستنّ لهم مبدأ عاماً فى اتباع ما يقوله وهو . . إذا أمرتكم بشيء من دينكم — وفى رواية إذا حدثتكم عن الله شيئاً — فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإمضوا أما بشر .

وصيغة هذا الحديث واضحة فى الهدف الذى هدفنا إليه من هذا الكتاب ، وهو تعدد جواب الرسول عليه السلام ، وكان له جانب بشرى يجوز عليه من أجله ما يجوز على البشر ، وجانب آخر يمتاز به عن البشر وهو

ما يتصل فيه بر به جلّت عظمته من حيث إنه رسوله وإنه كلف بتبليغ رسالته إلى الناس كافة .

والنوروى يعلق على هذا الحديث بقوله : قال العلماء : رأيه صلى الله عليه وسلم في أمور المعاش كغيره فلا يتمتع وقوع مثل هذا - وقوع ما يخالف رأيه كخروج النخل سميصا هما - ولا نقص في ذلك . وسببه تعلق همه بالآخرة ومعارفها .

وقال الأبي قال القرطى : قال ذلك صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن عنده علم باستمرار العادة ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ممن عانى الملاحاة خفيت عليه تلك الحالة ، وتمسك صلى الله عليه وسلم بالقاعدة السككية وأنه لا يؤثر ولا يغى إلا الله تعالى . والأنى يعلق على اعتذار القرطى عن الرسول عليه السلام في ذلك بقوله : يرد أن يقال : اجتماع الذكر والأنثى سبب واضح في حصول النتيجة كما بص عليه القرآن فكيف يلغى اعتبار ما بص على اعتباره القرآن ، ثم قال : والجواب أن سببها أمر عادى مشاهد في الحيوان ، وأما في الأشجار فمستنده التجربة .

وما ينقل عن النوروى في الشرح يتفق مع ما يذكره ابن خلدون حيث يقول : إنه صلى الله عليه وسلم يقول في أمور المعاش من طب وزراعة بما يقول

به الناس حوله ناهجاً عن تحارب وعادة - وهذا فيما لا وحي فيه طبعاً - .
وتتجلى صحة هذا الرأى بالمقارنة بين ما غاب عنه صلى الله عليه وسلم من
شئون النخل التى تعتبر بدهية لدى أهل المدينة لأنه صلى الله عليه وسلم نشأ
فى بلد غير ذى زرع - مكة - ولم يكن لأهلها علم بحال النخيل وما يصلحه
وما يفسده من حمة و بين تمام خبرته صلى الله عليه وسلم ببعض نبات جبال
مكة وصحاريها مما يعلمه رعاة الغنم من جهة أخرى . فقد أخرج البخارى فى
صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجنى
الكباب فقال صلى الله عليه وسلم عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه ، قالوا :
أكنت ترعى الغنم ؟ قال : وهل من نبي إلا وقد رعاها ^(١) .

ومثال آخر لما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم فى صورة تفضيل الترك

[١] قال الحافظ ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث : السكيات مفتاح السكاف والباء آخره
مثلثة هو الصبح من ثمر الأراك ليس له عجم ، وإنما قال له أصحابه : أكت ترعى الغنم ؟
لأن فى قوله لهم : عليكم بالأسود منه دلالة على تمييزه بين أنواعه . والذى يميز بين أنواع
ثمر الأراك عالمياً من يلازم رعى الغنم على ما ألدوه ، لأن راعيها كثيراً ما يحوس حلال
الأشجار لانتعاش المرعى منها ، والمتردد على الشئ يكون حبيراً به .

ثم قال الحافظ مستطرداً : والحكمة فى رعى الأنبياء الغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع
وتعتاد قلوبهم الخلوة ويتروقا من سياستها إلى سياسة الأمم وقيامهم برفق إلى ما فيه
صلاحهم .

على الفعل ما يرويه البحارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة عن أيتهما دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير^(١) ؟ إني أحد منك ريح مغافير ! . قال : لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلعت ، فلا تخبرى بذلك أحدا ! فبرلت : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ^(٢) . »

١ — فهو عليه السلام رأى أن لا يعود لشرب العسل ظنا منه أن رائحته كريهة غير مقبولة .

[١] المغافير بالعين المعجمة والفاء بعدها ياء ثم راء جمع معفور ، صمغ حلو له رائحة كريهة وكان صلى الله عليه وسلم يكره الرائحة الكريهة . قال فى النهاية : المغافير شئ يصجبه شجر العرفط ، حلو له رائحة كريهة مسكرة . والعرفط شجر الطلع وله صمغ كريه الرائحة وإذا أكلته الحل حصل فى عسلها من ريحه .

[٢] معنى قوله تعالى فى الآية الكريمة « لم تحرم » لم تمتنع ، و « ما أحل الله » العسل والاستفهام ليس على حقيقته ، بل هو عتاب على الامتناع عن الحلال مع اعتقاد حله مرصاة لبعض أزواجه ، لا أنه صلى الله عليه وسلم اعتقد تحريم الحلال — حاشاه صلى الله عليه وسلم — .

٢ — لكن الله جل شأنه لم يقره على ما رأى بل عاتبه عليه بقول سبحانه : « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ لَكَ ؟ » .

ما برأ من اجتراحه في صورة النهي العام

يروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله حرم مكة لا يعصده شجرها »^(١) . فقال العباس يارسول الله ! إلا الإذخر لصناعتنا وقبورنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر »^(٢) . وفي رواية أخرى : وهذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وأنه لا يحل فيه القتال لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعصده شوكه . . . الخ . . . » ، فقال العباس : يارسول الله ! إلا الإذخر فإنه لقيتهم وليبوتهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر » . وفي رواية : قال العباس : « يارسول الله ! : إن أهل مكة لا صبر لهم على الإذخر ، لقيتهم وبيوتهم .

[١] أى لا يقطع .

[٢] الإذخر بنت معروف عند أهل مكة طيب الرائحة له أصل ممدق وقصباه دقاق ، ينبت في السهل والحر ، وأهل مكة يسقون به البوت بين الحسب ويسددون به الحلال بين اللبسات في القبور ويستعملون في الوقود ، ولهذا قال العباس : فإنه لقيتهم وهو الحداد أوكل دى ساعة يعالجها نفسه . ويكثر أن يكون ذلك بواسطة النار

والقرافى - فى تنقيح المصول - يعلق على هذا الحديث بقوله : فهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لما بين له العباس الحاجة إلى الإذخر أباحه بالاجتهاد المصالحة .

والحافظ يقول : إن هذا يدل على أن الاستثناء فى كلام العباس لم يرد به أن يكون هو المستثنى ، وإنما أراد به أن يلحق النى الاستثناء .

ويقول الطبرى : ساع للعباس أن يستثنى بعد أن علم أن المحرم هو الله لأنه احتمل عنده أن يكون المراد بتحريم مكة تحريم القتال دون ما ذكر من تحريم عضد الشجر فإنه من تحريم الرسول واجتهاده فساع له أن يسأله استثناء « الإذخر » .

١ - فالرسول عليه السلام حرم واجتهاده فى صيغة العموم قطع « الإذخر » .

٢ - ثم عدل عن تحريمه إلى إباحته عندما تكشفت له الحاجة إليه . وهذا ما يفيد شرح الطبرى والقرافى .

ما بدأ منه اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المنافقين

قال ابن كثير : قال قتادة : أرسل عبد الله بن أبي (١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ، فلما دخل عليه قال له صلى الله عليه وسلم : « أهلكك حب يهود » . قال : يا رسول الله ! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ، ولم أرسل إليك لتؤبني ، ثم سأله عبد الله أن يعطيه فيمصه ليكفن فيه (إذا مات) فأعطاه إياه .

قال ابن كثير : فإذا صحت هذه الرواية دلت على أنه صلى الله عليه وسلم استغفر له وهو حي ، وأنزل الله - وعبد الله حتى أيضاً - : « أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » (٢) .

قال في تفسير المنار تعليقاً على ذلك : والظاهر أنه كان صلى الله عليه وسلم يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو المشركين ويقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

(١) كان من كبار المدافعين الذين أظهروا الإعاض وأطوا الكفر ، وكانت وفاته سنة ٩ هـ [٢] آية ٨٠ من سورة التوبة .

ويروى البخارى - ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى - عن ابن عمر أنه قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ليصلى عليه ، فقام عمر بن الخطاب وأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه^(١) ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما خيرنى الله فقال : أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، وسأزيد على السبعين » ، قال : إنه مات منافق ، قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ

[١] الذى يظهر من سياق القصة أن عمر رضى الله عنه فهم النهى من قوله تعالى : « فلى يعفر الله لهم » أو معها ومن التسوية بين الاستغفار وعدمه . قال الكرمانى : لأن الشىء الذى يستوى حصوله وعدمه يكون طلبة عملاً ، والعتى محظور على القلاء فصلاً على الأنبياء . وقال الألوسى : ولم يزل بين « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وبين « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » شىء ، وما فهمه عمر من النهى فأخود من الآية الأولى ، أى لأنه لو كان هناك ما يفيد النهى غيرها لذكروا عمر بعد المعارضة ، وكذا لما خفى عليه صلى الله عليه وسلم . ونص عبارة الألوسى عند قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » :

وطاهر هدين الحر أن أنه لم ينزل بين « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وقوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » شىء يفهمه عمر رضى الله عنه وإلا لذكروا . والطاهران مراده بالنهى فى الجزء الأول ما فهمه من الآية الأولى ، لا ما يفهم كما قيل من قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » لعدم مطابقة الجواب حيثئذ . ثم قالوا : وإما نهى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ولم يبه عن إعطاء القميص مطبة الإخلال بالكرام .

أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ^(١)» .

والبخارى يروى أيضاً من طريق آخر عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لما توفي عبد الله بن أبى دعى صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولات حتى قمت فى صدره ، فقلت : يا رسول الله ! أنصلى على عدو الله عبد الله بن أبى النخائل يوم كذا : كذا ، وكذا^(٢) ؟ أعدد عليه قوله ! فنسب صلى الله عليه وسلم وقال : « آخر عنى يا عمر » ، فلما أكرثت عليه قال : « إني حيرت فاحترت » ... إلى أن قال : فصلى عليه صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » .

قال ابن المير : وإما قال ذلك عمر حرصاً على النبی صلى الله عليه وسلم ومشورة لا إلزاماً ، وله عهدته بذلك .

[١] آية ٨٤ من سورة التوبة .

[٢] أى النخائل فى عزوة بنى المصطلق — وكانت سبعة ست — : « لئن رجعنا إلى المدينة ليجرح الأعر منها الأذل » ، والنخائل : « لا تمفقوا على من عبد رسول الله حتى ينفصوا » . وروى قتادة عند تفسير قوله تعالى : « محملون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ... » — آية ٧٤ من سورة التوبة — قال : نزلت فى عبد الله بن أبى ، وذلك أنه اقتتل رجلان جهى (مكى) وأنصارى ، فعلا الجهى على الأنصارى . فقال عبد الله بن أبى للأنصار : ألا تبصرون أحاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال النخائل : سمين كلبك بأكلك — وسياق تفصيل هذه القصة فى ص ١٢٢ من هذا الكتاب .

وقال الحافظ ابن حجر : واستشكل الداودي تبسمه صلى الله عليه وسلم عند الجنائزة ، وأحيب بأنه عر عن طلاقة وجهه بالتبسم ، وإما فعل ذلك تأنيساً لعمر ، وتطريباً لقلمه كالمعتذر عن ترك قبول كلامه ومشورته :

- ١ — فالرسول عليه السلام عندما طلب منه عبد الله بن أبي — وهو رأس المنافقين كما يقولون — أن يستغفر له استغفر له اجتهداً منه ودعا ربه العفو عنه ،
- ٢ — لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه وبالتالي لم يستجب لدعائه ، كما جاء في كتابه الكريم : « اَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

ولو كان استغفار الرسول عليه السلام لعبد الله بن أبي عن وحى ولم يكن عن رأى اجتهدى منه لما نفي سبحانه وتعالى — هنا في هذه الآية الكريمة — قبوله وأكد ذلك بعدم وقوعه فيما بعد أيضاً .

ومن اطلع على هذه الروايات التي دونت في كل تواليف الحديث (وفي مقدمتها البخارى ومسلم) يعرف أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد فاستغفر لبعض المنافقين — واجتهد فصلى عليه — وعاتبه الله على ذلك ، بل ربما يسترسل في

تخزيها فيرى أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد فوق ذلك في فهم القرآن وأن
فهم غيره كان هو الصواب .

ولما كان هذا أمراً خطيراً رأينا - من باب الاستطراد - أن نورد هنا
كل ما اتصل بهذا الموضوع من القرآن والسنة ونعرضه في صعيد واحد علماً
نصل منه إلى شيء تطمئن إليه النفس فنقول وبالله التوفيق :

قد يكر على ما يفهم من دعائه صلى الله عليه وسلم وصلاته على
المنافقين أمور :

١ - منها أن البخاري ومسلم وأحمد وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير
وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وآخرون ، يروون عن سعيد بن المسيب عن أبيه
قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل
وعبد الله بن أبي أمية ، فقال صلى الله عليه وسلم : أي عم ! ، قل : لا إله
إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية :
يا أبا طالب ! ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل صلى الله عليه وسلم يعرضها
عليه ، وأبو جهل وعبد الله يعاودانه بتلك المقالة ، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم :
هو على ملة عبد المطلب ، وأي أن يقول لا إله إلا الله ، فقال صلى الله عليه وسلم :
« لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت الآية الكريمة : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ^(١) .

وروى الطبري — في سبب نزول الآية — عن عمرو بن دينار قال : قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر
لأبي طالب حتى يهاني عنه ربي » ، فقال أصحابه : لنستغفرن لابائنا كما
استغفر نبينا لعمه ، فنزلت الآية : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... » .

وهذا الحديث الصحيح يدل أولاً على أنه صلى الله عليه وسلم سبق له أن
احتمد واستغفر لبعض الكفار ، وهما الله ، إذ موت أبي طالب كان بمكة قبل
الهجرة بثلاث سنين وموت عمه الله بن أبي ابن سلول كان في ذي القعدة
سنة تسع .

٢ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم في سورة الممتحنة — سنة
ست — ما يوجب على المؤمن التبرأ من عدو الله ، فضلاً عن الاستغفار له ، وضرب
لهم مثلاً بأباهم إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه وأنهم قدوتهم في كل شيء

[١] آيتا ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

إلا في وعده أباه بالاستغفار ، أى فلا تقتصدوا به في ذلك فقال تعالى :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ
 بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ أَلْحَقِ ... إلى قوله : قَدْ كَانَ لَكُمْ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ
 وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ
 وَالْبَعْصَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لَا بِيَهُ لَأَسْتَعِيرَنَّ
 لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

٣ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم في سورة النساء — سنة ست — :
 « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ^(١) » . وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ
 يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ
 صَلَاً لَا يَعِيدُ ^(٢) » .

٤ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك في عبد الله بن أبي
 ابن سلول هذا ومن معه سورة « المفاقين » — وكان نزولها بعد غزوة بني المصطلق
 التي كانت في شعبان سنة ست — وفي هذه السورة ما يفيد أن الله طبع على قلب

[١] آية ٤٨ من سورة النساء .

[٢] آية ١١٦ من السورة السابقة .

ابن أبى ، وأنه لا يؤمن ولا ينفع له استغفار . قال تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَكَاذِبُونَ ، اخذوا أيمانهم حنّةً فصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا^(١) فَطَمَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... إِلَى أَنْ قَالَ : هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ فَإِنَّهُمْ آلَاءُ اللَّهِ لَئِنْ يُوَفَّكُون ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْمَعُوا لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَتْهُمُ بِصُدُونٍ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْمِعْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْصِتْ لَهُمْ أَمْ لَمْ يَنْصِتْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حَزَانُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْكَرِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَحِمَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِالْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

والبخارى فى سبب نزول هذه السورة يروى عدة أحاديث وزعمها على سبعة أبواب ، وكلها تدور حول موقف قبيح مخزٍ لعبد الله بن أبى سؤل :

[١] آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من دخل فى الإسلام ، ثم كفروا طهر كفرهم وتبين من أقوالهم وأفعالهم أو المعنى . ثم أصرروا على الكفر . و « ثم » للبعد ما بين المراتبتين . وإذا كان القائل هو عبد الله بن أبى فكيف جمع « الصائير » ؟ قيل : من باب بى تميم قبلوا فلاناً ، والقائل واحد منهم — لا سيما وهم على رأى واحد — .

فيها : عن زيد بن أرقم قال : كنت في غرة^(١) فسمعت عبد الله بن أبي
بقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينقصوا من حوله » ، « ولو
رحمنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، فذكرت ذلك لعمر^(٢) ،
فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني ، حدثته ، فأرسل صلى الله عليه وسلم
إلى عبد الله بن أبي وأصحابه ، فخلعوا ما قالوا ، فكذني رسول الله وصدقه ،
وأصابني هم لم يصنني مثله قط ، فجلست في البيت ، فقال لي عمر : ما أردت

[١] هي عروة بن المصطلق ، وكانت في شعبان سنة سب فقد روى البخاري في باب
قوله تعالى : « سواء عليهم استعمرت لهم أم لم تستعمر لهم » عن جابر بن عبد الله قال :
كنا في غرة فكسع — أي صرب حجره بقدمه — رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار .
فقال الأنصاري : يا لأنصار ! وقال المهاجري : يا للمهاجرين ! فسمع ذلك رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال : « ما نال دعوى جاهلية ؟ » ، قالوا يا رسول الله ! كسع رجل من
المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منته » ، فسمع بذلك عبد الله بن أبي
فقال : فعلوها ! أما والله لئن رجعا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ ذلك النبي
صلى الله عليه وسلم فدعاه فأبكر . إلى أن قال في الحديث : وكانت الأنصار أكثر من
المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد وفي رواية للبخاري أيضاً :
إن عمر قال عبد ذلك : دعى يا رسول الله أصرب عن هذا الماني ، فقال صلى الله عليه
وسلم : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث : هذا مما يؤيد تقدم القصة على « تنوك » ،
ويوضح وهم من قال إن تلك العزة كانت « تنوك » ، لأن المهاجرين حين « تنوك »
كانوا كثيرين جداً ، وقد انصادت إليهم مسلمة الفتح في عروة « تنوك » فسكنوا حينئذ أكثر
من الأنصار ، وقد سمي ابن إسحاق والإسماعيلي وعروة هذه العزة بأنها « بنى المصطلق » ،
وهذا هو الذي عليه أهل المعاري .

[٢] قال الحافظ ابن حجر : أراد بعمه ها « سعد بن عباد » ، وليس هو عمه على
الحقيقة ، وإنما هو سيد قومه — الحررح — .

إلى أن كذبتك^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك ، فأمر الله عز وجل :
« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ... الْآيَةُ » فبعث إلى النبی صلى الله عليه وسلم فقرأها
فقال : « إن الله قد صدقك يا يزيد »^(٢) - وفي رواية فرجعت إلى المنزل
فمتم محافة أن يرانى الناس فيقولوا : كذبت - .

ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم من سورة التوبة في أثناء رجوعه
من غزوة « تبوك » ما فضح المنافقين سواء منهم من كان معه في السفر أم من
تخلف بالمدينة بأعداد كاذبة كعبد الله بن أبى ومَن على شاكلته كأصحاب
مسجد الضرار الذى كان سيصلى فيه عقب رجوعه فمهاه الله وفصح من بناه
مهم من رموس النفاق :

فما رل في عبد الله بن أبى في أثناء الطريق : « سَيَخْلِفُونَ لَكُمْ إِذَا
اِقْلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَالَهُمْ حَتَمٌ
حَزَاءٌ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »^(٣) .

[١] قال السكرماني . أى ما قصدت متبهاً إليه ، والمعنى ما مملك حتى صرت لى أن
كذبتك صلى الله عليه وسلم .

[٢] إذا تأملت سياق أحاديث سورة المنافقين تدل على حلياً أن يرول السورة وما
يتعلق بعبد الله بن أبى كان عقب الرواة مباشرة ، لإد يقول الراوي : إلى مكثت في البيت
خوف الحرى حتى رلت السورة . ومن هنا تعلم صعب حواس أن سورة المنافقين رلت بعد
« تبوك » .

[٣] آبتا ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

قال البغوى : قال مقابل : نزلت - هذه الآية - فى عبد الله بن أبى ابلن سلول ، حلف له صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عنه أبداً بعدها وطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه .

من كل هذا يتبين :

أن النبى صلى الله عليه وسلم هبى عن الاستغفار للمشركين قبل الاستغفار لابن سلول مدة ثنى عشرة سنة . ولا يجوز أن يخالف صلى الله عليه وسلم هبى الله طول هذه المدة ؛ بل ولا طريقة عين .

وأجاب الواحدى عن ذلك بأن استغفاره صلى الله عليه وسلم لأبى طالب وإن كان قبل الهجرة لكن الهبى عنه لم يرد إلا فى سنة تسع .

وعليه فلا يراد بقوله فى حديث أبى طالب « فنزلت : ما كان للنبي .. » أن النزول كان عقب الاستغفار ؛ بل يراد أن ذلك سبب النزول . فـ « الفاء » فيه للسببية لا للتعقيب . قال الألوسى : واعتمد على هذا التوجيه كثير من جللة العلماء - وهو توجيه جيد - .

وأنت ترى أن هذا الجواب صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم مكث يستغفر لأبى طالب خطأ زهاء اتنى عشرة سنة . فهل يجوز أن يتركه الله على خطأه كل هذه المدة ؟ .

وأجاب بعضهم : بأنه لا مانع أن يكون الرسول علم بالنهي عن الاستغفار للمشركين ، ولكنه فهم أن ابن ساول ليس كافراً صريحاً ، فاستغفر له اجتهداً منه . ولما رُدَّ عليه : بأنه كيف يصلى عليه بعد نهيه عن الاستغفار له ، وبعد ما جاء في تدبيل آية النهي عن الاستغفار « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ؟ . أجاب بأن هذا التدبيل بعد الحادث ، لا متصلاً بالآية .

وأنت ترى ما في هذا الجواب !! .

والإشكال الذى لم يوجد له جواب صحيح هو أن النبى صلى الله عليه وسلم سبق أن نهى عن الاستغفار لعبد الله من أى نفسه قبل موته بنحو عامين كما جاء فى سورة المنافقين — كما تقدم — . وأيضاً ما قاله الزمخشري : من أنه كيف يخفى على أفصح الخلق وأحبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن المراد بـ « السبعين » أن الاستغفار ولو كثر لا يحدى ، لا سيما وقد جاء بعده قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... الآية » ، فبين الصارف تعالى عن المغفرة لهم ؟ .

ولذا قال الحافظ ابن حجر : واستشكل فهم « التحجير » — استغفر لهم أو لا تستغفر لهم — من الآية حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن فى صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه : قال ابن المنير : مفهوم الآية رلت فيه

الأقدام، حتى أسكر القاضي أبو بكر الباقلاني صحة هذا الحديث ، وقال : لا يجوز أن يقبل هذا ، ولا يصح أن الرسول قاله . وصيغة ما قاله في كتاب « التقرير » : وهذا الحديث من أخبار الآحاد التي لا يعلم ثبوتها . وقال الغزالي في كتاب « المستصفى » : الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح . وقال ابن المنير : ليس عند أهل البيان تردد في أن التحصيل بالعدد في هذا السياق غير مراد ، فقصد المبالغة واصح ، فلذا استشكلوا قوله صلى الله عليه وسلم : « سأزيد على السبعين » مع أن حكم ما راد عليها حكمها . ولذا قال بعض العلماء : والحق أن هذا الحديث معارض للآيتين : آية « راءة » ، وآية « المتفادين » ...

فالذين يعنون بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يحدوا ما يحييرون به عن هذا المعارض إلا الحكم بعدم صحة هذا الحديث ، ولو من جهة متنه . وقد تقدم كثير منهم كالقاضي أبي بكر الباقلاني والغزالي .

وأما الذين يعنون « بالأسانيد » أكثر من عنايتهم بـ « المتون » ، وبالفروع أكثر من الأصول فقد تكلفوا أجوبة لا يقبلها منصف .

ومن الأصول المتفق عليها : أنه ليس كل ما صح سنده صح مضمونه ، وإعما يعمل على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعي ، وأن القرآن مقدم على الحديث عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما .

الفصل الثاني

عمد صلى الله عليه وسلم اجتهاداً

في الفصل السابق ذكرنا أمثلة من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صور قولية ، والآن نذكر أمثلة أخرى لاجتهاده عليه السلام لها الطابع العملي . وبذا نقاكد إنسانيته فيما خرج عن دائرة الرسالة والتبليغ .

وكما رأينا في الصور السابقة لاجتهاده عليه السلام من إقرار الله سبحانه وتعالى لما رأى صلى الله عليه وسلم أو عدم إقراره لذلك سرى هنا أيضاً نفس هذا الحال مما يدل دلالة واضحة على أن الذي بدا من الرسول الكريم كان له خاصة كإنسان، ولم يصدر عنه كوحى إليه .

فمن هذه الأمثلة :

- ١ — أنه صلى الله عليه وسلم صلى على عبد الله بن أبي بن سؤل — باعتبار ما في الصلاة من أعمال كاستقبال القبلة ورفع اليدين عند التكبير مثلاً — ^(١) ،
- ٢ — وأن الله سبحانه وتعالى لم يقره على ذلك — كما تقدم — .

[١] وقد سبق الحديث صمماً عن ذلك في الفصل السابق تحت عنوان : ما بدا من اجتهاده في صورة الاستعفار لبعض المنافقين ، ص ١١٤ .

١ — أخذه صلى الله عليه وسلم الفداء من أسرى بدر ، إذ يروى ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر حىء بالأسارى فقال أبو بكر ، يا رسول الله ! قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يقرب عليهم ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأحرقوك وقانلوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الخطب فأضرمه عليهم ناراً ، فقال العباس — وهو يسمع ما يقول — قطعت رحلك ، فدحل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأحد يقول أبي بكر ، وقال أناس : يأحد رأى عمر ، فخرج رسول الله صلى عليه وسلم فقال : « ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجاة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنه غفور رحيم^(١) ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام ، قال : إن تعدّ بهم فإسهم عِمادُك وإن تغرّ لهم فإبك أنت العزيز الحكيم^(٢) ، ومثلك يا عمر كمثل موسى

[١] آية ٣٦ سورة إبراهيم .

[٢] آية ١١٨ سورة المائدة .

عليه السلام ، إذ قال : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْمَذَابَ الْأَلِيمَ » ^(١) ، ومثلاك يا عمر كمثل روح عليه السلام ، إذ قال : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَتَارًا ^(٢) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أنتم عالة ^(٣) فلا تنفلتن أحد من الأسرى إلا بعداء أو ضرب عنق .

٢ — فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : « مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ ... إِلَى قَوْلِهِ عَظِيمٌ » ^(٤) .

ويروى أحمد ^(٥) ومسلم من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب - في نفس الموضوع - قال : لما أسر الأسارى - يعني يوم بدر - قال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ! هم بنو المم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية ، فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[١] آية ٨٨ سورة يونس .

[٢] آية ٢٦ سورة نوح .

[٣] أى فقراء فى حاجة إلى مال العداة .

[٤] آيتى ٦٧ و ٦٨ سورة الأنفال وسيأتى شرحهما .

[٥] ورواية أحمد أكثر تفصيلا .

عليه وسلم : ما نرى يا ابن الخطاب ؟ فقال : لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر
ولكى أرى أن تمكثنا فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة السكمر وصناديدها ^(١) ،
فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان
الغد حئت وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ،
قلت يا رسول الله ! أحبنى من أى شىء تمكى أنت وصاحبك ، وإن وجدت مكاء
مكيت وإن لم أجد بكاء تبأكيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبكى للذى
عرض لأصحابى من أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عدايهم أدنى من هذه
الشجرة - لشجرة قريبة منه صلى الله عليه وسلم - ،

فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى
يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ . . إلى آخر الآيتين » ^(٢) .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر - فيه أيضاً -

[١] صايددها أى صايد قريش وهم رؤساؤها .

[٢] وقال ابن جرير فى معنى الآية : « الأسر » فى كلام العرب معناه الحبس فالغنى :
ما كان لى أن يحتبس كافرأ فدر عليه وصار فى يده من عمدة الأوثان للفداء أو الملى ،
فأنة سبحانه وتعالى يعرف بنيه أن قتل المشركين الدين أسرم يوم بدر وفاداهم كان أولى
بالصواب من أخذ العدية مهم وإطلاقهم . ومعنى « ويشحن فى الأرض » أى يضم شأنه
ويعلط بأن تم له القوة والعلب فلا يكون اتحاده الأسرى سبأ لصعته أو قوة أعدائه . قال
الواحدى : الإثخان فى كل شىء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتد
عليه ، وكذلك أثخنه الحراح ، والثجاة العلطة ، فشكل شىء عيط فهو يحين .

قال : اختلف الناس في أسارى بدر ، فاستشار صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بقول أنى بكر ، ففاداهم ،

فأنزل الله تعالى : « لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ كَادَ لَيْسَنَا فِي خِلَافِ ابْنِ الْخَطَّابِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، وَلَوْ نَزَلَ الْعَذَابُ مَا أَمَلْتُ إِلَّا عَمْرًا » . وأخرج ابن جرير عن أنى زيد قال : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نُصِرَ إِلَّا أَحَبَّ الْغَنَاءَ إِلَّا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ جَعَلَ لَا يَلْقَى أَسِيرًا إِلَّا ضَرَبَ عُنُقَهُ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَا لَنَا وَالْغَنَاءُ ؟ نَحْنُ قَوْمٌ يُجَاهِدُونَ فِي دِينِ اللَّهِ حَتَّى يَعْبُدَ اللَّهَ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ عَذَّبْنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ يَا عَمْرُ مَا نَجَا غَيْرُكَ » .

١ — عبوسه صلى الله عليه وسلم في وجه ابن أم مكتوم الأعشى على نحو ما ورد في قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » .

قال الحافظ ابن حجر : لم يختلف السلف في أن فاعل « عبس » هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الترمذي والحاكم وابن حبان عن عائشة قالت : نزلت في ابن أم مكتوم الأعشى ، قال يا رسول الله أرشدني ! — وعند النبي صلى الله عليه وسلم

ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما - فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عن ابن أم مكتوم ، و يقبل على غيره

٢ - فترت : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ حَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْمَعَهُ الدَّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَحْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَذَلَا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » .

قال صاحب المنار^(١) في ذلك : احتهد صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن الأعشى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكار قريش إلى الإسلام ، وقد لاحت له بارقة رجاء في إيمانهم بنحوهم معه ، فعلم صلى الله عليه وسلم أن إقباله على الأعشى قد ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوه ، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله في البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم وأوساطهم ، دون الأكار المحرمين المترفين الذين يرون في اتباع غيرهم صعة ذهبا رياستهم .

وقال الألوسي أيضاً في تفسير سورة (عبس) :

[١] عند شرح قوله تعالى « عما الله عماك لم أدت لهم » .

جاء ابن أم مكتوم^(١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قریش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال يا رسول الله : علمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، ولم يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالفوم ، فذكره صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعدس وأعرض عنه فترت : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ... الخ » . فكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتى فيه ربي ، ويقول : هل لك من حاجة^(٢) ؟ .

[١] وابن أم مكتوم هو ابن خال حديجة واسمه عمرو بن قيس القرشي ، وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المحرومية ، وكان أعمى وعمى بعد نور . وقيل ولد أعمى ولذا قيل لأمه أم مكتوم . وهو ابن خال حديجة أم المؤمنين . أسلم قديماً عكة وكان من المهاجرين الأولين . هاجر إلى المدينة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إليها . والمشهور أن اسمه عند الله وسبب حقاء اسمه هو شهرته بكينته (ابن أم مكتوم) . قال الرقائي على المواهب اللدنية جزء ٣ ص ٣٧٠ وعمرو ابن أم مكتوم سب لأمه . ورغم نصحهم أنه ولد أعمى فكبت أمه به لاكتام نور نصره (أي حسنه) والمعروف أنه عمى بعد مدة من ولادته . وظاهر كلام أهل اللغة أن التكنية بأُم مكتوم لا علاقة لها بعمى اسمها ، قال في المصباح المير في مادة كتم (وحديث مكتوم . وبه كينت المرأة فقيل أم مكتوم) .

[٢] قال الألويسي بعد ذلك : عرفني (عباس) بصغير العيبة ثم خاطبني (وما بدريك) قيل إجلالاً له صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه العيوس غيره — صلى الله عليه وسلم — لأن من شأنه ألا يصدر عنه مثل ذلك ، ثم خاطبه إيهاماً بعد إيهام ، وإقبالاً =

سوقه صلى الله عليه وسلم الهدى ، وتمنيه أن لم يكن ساقه

١— روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن النبی صلى الله عليه وسلم أهل وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدى غير النبی صلى الله عليه وسلم وطلحة ابن أبی رباح ، وفى رواية أحمد ومسلم : غير النبی صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وذی اليسار ، وأن النبی صلى الله عليه وسلم أذن لأصحابه أن يجمعوها عمرة . يطوفوا ثم يقصروا ويحلوا إلا من معه الهدى . فقالوا أنطلق إلى مى وذكر أحدنا يقطر^(١) ؟ : فبلغ النبی صلى الله عليه وسلم

٢— فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدرت ما أهديت ولولا أن معى الهدى لأحللت » .

== بعد لإعراس . ثم قال أيضاً وقيل إن العيبة أولوا الخطأ ثانياً لريادة الإسكار وذلك كما يشكو إلى الناس رحلاً ثم يقل على هذا الرجل اذا اشتدت السكاية مواجهاً بالوم واللام الحجة . وفى ذكر اس أم مكتوم (بالأعمى) دون ذكر اسمه لإشعار بغيره فى الإقدام على قطع الكلام ، ولأنه وصف يناسب الإقبال عليه لا الإعراس عنه ، وفيه لوم آخر . « كلا » قال النسبى معناها ردع ورحر أى لا تعد لمثل ذلك (لها) أى هذه الآيات وما نزلت بسنة (تدكرة) أى موعظة يجب الاتعاط بها والعمل بموجبها .

روى ابن جرير عن اس عاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قضى نحيواه مع المشركين وذهب إلى أهله نزلت الآيات . وفى بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم ما عدس بعد ذلك فى وجهه فقير ، ولا تصدى لعى لعاه . وتأدب الناس بعد ذلك أدباً حسناً .

[١] استبشعوا أن يتحللوا التحلل الذى يبيح لهم النساء وغيرها .

وروى أحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه فأحرمنا بالحج ، فلما قدمنا مكة قال : « احملوا حجاجكم عمرة » ، قال : فقال الناس يا رسول الله ! : قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة ؟ . قال : « انظروا ! ما أمركم به فافعلوا » فردوا عليه القول ، ثم زادوا : أندخل البيت ومذا كيرنا تقطر منيا ؟ . فغضب صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلق حتى دخل على عائشة وهو غضبان ، فرأت الغضب في وجهه ، فقالت : من أغضبك أغضبه الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « وما لي لا أغضب وأنا أمر بالأمر فلا أتبع » .

وقد صح في الأحاديث أنهم بعد ذلك فعلوا ما أمرهم صلى الله عليه وسلم به وتحلل كل من لم يكن معه هدى .

دحواله صلى الله عليه وسلم في جوف الكعبة ثم تأمله لذلك ^(١)

١ — روى أحمد في مسنده والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي وهو قرير العين ، طيب النفس ،

٢ — ثم رجع إلى وهو حزين القلب فقلت يا رسول الله ! : خرجت من

[١] في بيل الأوطار جزء ٥ ص ١٦٦

عندى وأنت كذا وكذا ، فقال : « إني دخلت الكعبة ووددت أنى لم أكن فعلت ، إني أخاف أن أكون قد أتعبت أمتى من بعدى » .

إقراره صلى الله عليه وسلم كتابة شروط الصلح مع قائدى غطفان يوم الخندق^(١) .

روى ابن كثير فى تاريخه^(٢) ، قال ابن إسحاق : لما اشتد البلاء على الناس بالحصار الذى مكث نحو شهر ، نعت صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان^(٣) وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح^(٤) فلما أراد صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك . نعت إلى السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه . فقالا يا رسول الله ! : أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصفه لنا ؟

١ — فقال صلى الله عليه وسلم : « بل شئى أصفه لكم ، والله ما أصنع ذلك

[١] وإذا نظر إلى ما حصل منه صلى الله عليه وسلم من الكلام صح وضع هذا البحث فى فصل اجتهاده صلى الله عليه وسلم فى القول المتقدم ذكره .

[٢] جزء ٤ ص ١٠٤ .

[٣] من القمائل الكبيرة التى كانت تقيم فى مارها شرق المدينة على مسافة منها .

[٤] أى إصاء الشرط وتوقيعه .

إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد وكالبهوكم^(١) من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما » . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ! : قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا قرى أو نيعا ، أخفين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ ، ما لنا بهذا من حاجة ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ،

٢ — فقال صلى الله عليه وسلم : « أنت وذاك » . فتناول سعد الصحيفة فحما ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليمجدوا أنفسهم .

[١] المصباح : كاله مكالة أظهر عداوته ومصاصته العداء وحاهره به .

الفصل الثالث

في موقفه مما اشتهر فيه أصحابه صلى الله عليه وسلم في عصره
في غيبته وفي حضوره

ما حصل يوم بدر :

١ — قال ابن كثير وابن الأثير : قال ابن إسحاق : خرج صلى الله عليه وسلم يوم بدر يبادر قريشاً إلى الماء . ورجل المسلمون على أول ماء من بدر ، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ! : أرايت هذا المنزل ؟ : أمزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأى والمكيدة ؟ قال : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » ، قال يا رسول الله ! : فإن هذا ليس بمحل فاهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور^(١) ما وراءه من القلب ، ثم نبغى عليه

[١] يذهب الماء من كل قلب غير الذى نزلنا عنده ، والقلب الثرى يذكر وقد يؤث .
جمعه قلب نهم أولاه وثأبيه كندير وبدر .

حوضاً فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فشرب ولا يشربون ، فقال له : « لقد أشرت بالرأى » ، وفعل كما قال .

٢ — ثم إن سعد بن معاذ قال يا رسول الله ! ألا نذني لك عريشاً تكون فيه وبعيداً عندك ركائبك ؟ ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى حاسمت على ركائبك فلهجت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ، ما نحن أشد حياءً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، فأثنى عليه صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ، وأمر ببناء العريش فبنى له .

اجتهاد أبي بكر رضى الله عنه في حضرته صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين :

روى البخارى عن أبى قتادة قال : خرجنا مع النبی صلى الله عليه وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين حولة^(١) ، رأيت رجلاً من المشركين قد علا^(٢) رجلاً من المسلمين فضر بنه من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فمقطعت الدرع ، وأقبل على فصمنى ضمةً وحدت منها ریح الموت ،

[١] حولة : حركة فيها اختلاف . وفى الرواية التى بعدها أن بعضهم اهرموا

[٢] علا : أى ظهر وفى الرواية التى بعدها ما يوضحه .

ثم أدركه الموت فأرسلني ، فلحقته عمر بن الخطاب فقلت ما بال الناس ^(١) ؟ ، قال : أمرُ الله عز وجل ، ثم رجعوا وجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « من قتل فتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه » ، فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، فقمت فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست ، قال : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، فقمت فقال : « مَالِكَ يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ ؟ » فأحترته ، فقال رجل : صدق ، وسلبه عندي ، فأرضه منه ^(٢) ، فقال أبو بكر : لا ها الله إذاً لا يعمد ^(٣) إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فيعطيك سلبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق . فأعطه » فأعطانيه .

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي قنادة أيضاً قال . لما كان يومُ حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين وآخر من المشركين يحتله ^(٤) من ورائه ليقته : فأسرعت إلى الذي يحتله فرفع يده ليضربني ، وأضرب يده فقطعتها ، ثم أخذني فصمى ضمّاً شديداً حتى تحوفت ثم برك

[١] يريد بالناس المسلمين عدائهم كما سيأتي في الرواية الأخرى .

[٢] من هذا للدل على أنه أعطاه شيئاً من عندك يا رسول الله بدلاً من هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، لذلك أسرع أبو بكر في الرد على هذا السائل وأسار بإعطاء السلب للقاتل .

[٣] لا يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل كأنه أسد فيعطيك حقه بغير طيبة من نفسه .

[٤] يحتله : أي يريد أن يأخذه على عرة .

فتجلى^(١) ودفعته ثم قتلته ، واهزم المسلمون واهزمت معهم ، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس فقلت له : ما شأن الناس ؟ قال : أمر الله ، ثم تراجع الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أقام بيعة على قتيل قتله فله سلبه » فقامت لأتيس بيعة على قتيل ، فلم أر أحداً يشهد لي ، فجلست ، ثم بدا لي ، فذكرت أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل من جلسائه : سلاح هذا القتيل الذي ذكر عندى ، فأرضه منه ، فقال أبو بكر : كلاً لا يعطه أصيبغ^(٢) من قريش ، ويدع أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأداه إلى .

أقراره صلى الله عليه وسلم منه رقى بالفاتحة على أذن الأجير :

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : اطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب

[١] حارت قوام .

[٢] قال ابن حجر : الأصيبغ : نوع من الطير ، أو شبهه سات صعب يقال له الصعاء إذا طلع من الأرض يكون أول ما يلى الشمس منه أصفر . وفي رواية أصيبغ بالصاد والعين تصغير الصع على غير قياس . كأنه لما عظم أبا قتادة بأنه أسد مسر خصمه وشبهه بالصبيغ لصعب افتراسه وعجزه .

فاستصافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحى فسمعوا له بكل شيء ، لا ينعمه شيء . فقال بعضهم : لو أنتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء ؟ فأتوهم فقالوا : إن سيدنا لدغ ، فهل عند أحدكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، ولكن لا نفعل حتى تحملوا لسا حملا ، فصالحوهم على قطيع من الغنم . فاطلق يقرأ عليه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فكأما أشط^(١) من عقال ، فاطلق يمشى وما به علة ، فأوفوهم جعلهم . فقال بعضهم : اقساموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى النبی صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذى كان فننظر ما يأمرنا ، فقدموا ، وذكروا ذلك له صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » ثم قال : « قد أصبتم ، اقساموا واضربوا الى معكم سهما » وضحك صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ فى روايةٍ إسماعيل أعطوهم ثلاثين شاة ، وكان عدد الركب ثلاثين رجلا وقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى فاتحة الكتاب ، وقوله : « وَمَا يُدْرِيكَ » زاد فى رواية فقلت يارسول الله : شيء ألقى فى روعى . قال الحافظ

[١] قال ابن الأثير فى النهاية أشط من عقال أى حل وكثيراً ما مجئ فى الرواية كأما شط من عقال وليس بصحيح قال فى المصباح : أشطت الغير من عبالة : أصلته والأشوطه بصم المهززة ربطة دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت وشط فى عمله من باب تب خف وأسرع .

وهو ظاهر في أنه لم يكن عنده علم متقدم بمشروعية الرقي بالماتحة ، أى فيكون قد فعل ذلك اجتهداً منه .

لم يقر صلى الله عليه وسلم صلى بصلاته في قيام رمضان خوف
مُسْتَقَرَّةِ الفِرْصَةِ عَلَى أُمَّة :

روى البخارى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات
ليلة في المسجد ^(١) ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثرت الناس ،
ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة ^(٢) فلم يخرج إليهم صلى الله عليه وسلم .
فلما أصبح قال : « قد رأيت الذى صنعتم ، ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا
أنى خشيت أن تفرض ^(٣) عليكم وذلك في رمضان . . » انتهى الحديث .

[١] وفي رواية كان يحتجر حصيراً بالليل يصلى عليه . وينسقه بالنهار فيجلس عليه ، قال
البوصى : معنى تحتجر : يحوط موضعاً من المسجد بحصير يستريحه ليصلى فيه ولا يمر بين يديه
مار ليستوى حشوه ويتفرغ قلبه .

[٢] وفي رواية : فصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا وكثرت أهل المسجد من
الليلة الثالثة فحرج فصلوا بصلاته . فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله .

(٣) وفي رواية : لى خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها ، قال
القرطبي : حشى صلى الله عليه وسلم أن يطن أحد من الأمة من مداومته عليها الوحو .
كما إذا طن المجتهد حل شيء أو تحرمة فإنه يحب عليه العمل به . وقال ابن بطال : يحتمل =

فهذا يدل على أهمهم صلوا وراءه صلى الله عليه وسلم بدون إذن منه بل
ماجتهد مهمهم ، ولم يقرهم على ذلك خوف أن يفرض عليهم قيام رمضان وغيره .

* * *

أن يكون هذا القول صدر منه صلى الله عليه لما كان قيام الليل فرضاً عليه دون أمته وحشى
إن حرج إليهم والتموا معه قيام الليل أن يسوى الله بينه وبينهم في حكمه لأن الأصل في
الشرع المساواة بين النبي وبين أمته ، وقد استشكل الخطابي أصل هذه الحشية منه صلى الله
عليه وسلم مع ما ثبت في حديث الإسراء من أن الله تعالى قال : هـن خمس وهن خمسون
لا يبدل القول لدى ، فإذا أمن التبدل فكيف يقع الخوف من الريادة ، وقد نقل الحافظ
ابن حجر أحوية كثيرة لم يرصها ، ثم قال وقد فتح الباري بثلاثة أحوية أخرى أحدها :
يحتمل أن يكون الخوف افتراض قيام الليل بمعنى جعل التهجد بالمسجد جماعة شوطاً في صحة
التمتع بالليل ويؤى إليه قوله في حديث زيد بن ثابت (حتى حشيت أن يكتب عليكم ولو
كتب عليكم ما فتم به فصلوا أيها الناس في بيوتكم) فهم من التجمع في المسجد لمشفافاً
عليهم من اشتراطه .

ثانيها : يحتمل أن يكون الخوف افتراض قيام الليل على الكفاية لا على الأعيان ولا
يكون رائداً على الخمس المفروضة كل يوم على كل مكلف . بل هو بطير ما ذهب إليه بعض
العلماء في وجوب صلاة العيد

وثالثها : يحتمل أن يكون الخوف افتراض قيام رمضان خاصة فقد وقع في حديث الباب
أن ذلك كان في رمضان .

وفي رواية خشيت أن يمرض عليكم قيام هذا الشهر . وقيام رمضان لا يتكرر كل
يوم ولا يكون قدراً رائداً على الخمس .

سكوت صلى الله عليه وسلم على حلف عمر رضى الله عنه على أنه
« ابن الصياد » هو الدجال

روى البخارى^(١) ومسلم عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن
عبد الله يحلف بالله أن ابن الصياد هو الدجال ، قلت : تحلف بالله ؟ قال : إني
سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكره
النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم^[١] في صحيحه عن أنس بن سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :
صحبنى ابن الصياد إلى مكة فقال لى : ماذا لقيت من الناس ؟ يزعمون أنى
الدجال ، ألتست سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه
لا يولد له ؟ » قلت : بلى ، قال : فإنه قد ولد لى ، قال : أولست سمعته يقول :
لا يدخل المدينة ولا مكة ! قلت بلى ، قال : فقد ولدت بالمدينة ، وها أنا ذا
أريد مكة ، ألم نقل البى صلى الله عليه وسلم : « إن الدجال يهودى ! »
وقد أسلمت .

[١] فتح البارى جزء ١٣ كتاب الاعتصام باب من رأى ترك السكر من البى صلى الله
عليه وسلم حجة ، وى مسلم فى كتاب الامتن ٨ متن . أبواب ابن الصياد والدجال
(١٠)

وروى مسلم عن فاطمة بنت قيس حديثاً طويلاً جاء فيه قولها : سمعت منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى : الصلاة جامعة ! فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت في صف النساء اللاتي تلي ظهور القوم ، فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته جلس على المنبر وهو يضحك وقال : « جمعتكم لأن تيمم الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء وباع وأسلم ، وحديثي حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال : حدثني أنه ركب في سفينة مع ثلاثين رجلاً . . . إلى أن قال : ثم أرفأ^(١) إلى جزيرة في البحر ، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر وقالت : أنا الجساسة ، ثم قالت : انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير ، فدخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان^(٢) رأيناه قط خلقه وأشدّه وثاقاً ، مجموعة يده إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا ما أنت ؟ قال : أخبروني أولاً عن كذا وكذا ، وسأل كثيراً ثم قال : أخبروني عن بني الأميين ما فعل ؟ قالوا قد خرج من مكة وزل يثرب ، قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبروه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال : ذلك خير لهم ، وإني محرم عنى : إني أنا المسيح ، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض

[١] أرفأ : جنح .

[٢] لما في هذه الجملة من معنى النفي صح ذكر (قط) لأنها لا تستعمل إلا مع النفي ، ومعنى الجملة (ما رأينا مثله إلخ)

فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان عليّ». .
 قالت فاطمة بنت قيس : قال صلى الله عليه وسلم - وطعن بمخضرتة^(١) في المنبر - « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة ، ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟
 فقال الناس : نعم ، فإنه أعجبني حديث تميم ، إنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه ... الخ » .

قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري المتقدم ذكره : كأن جابراً لما سمع عمر يحلف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه فهم منه المطابقة . ولكن بقي أن شرط العمل بالتقرير ألا يعارضه التصريح بخلافه .

قال ابن بطال : فإن قيل ثبت في الصحيح أن عمر قال للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة ابن الصياد^(٢) : دعني أضرب عنقه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله » ، فهذا صريح في أنه عليه السلام تردد في أمره ، يعني فلا يدل سكوته عن إنكاره عند حلف

[١] المختصرة كمكنسة اسم لكل ما يتكأ عليه من عصا وعكاز وغيرها .

[٢] يشير إلى حديث طويل رواه مسلم جزء ٨ متن . صفحة ١٩٢ أوله : أن عمر بن الخطاب انطلق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : ولقينا ابن الصياد فقال ابن الصياد كلمة خاطئة فقال عمر بن الخطاب : دري يا رسول الله أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم : « إن يكنه فلن تسلط عليه ... الخ » .

عمر على أنه هو - أجب بأن التردد كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه هو الدجال ،
ولما أعلمه لم ينكر على عمر حلمه ، ثم قال : قال البيهقي : ليس في حديث
جابر أكثر من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على حلف عمر ، فيحتمل أن
يكون النبي عليه السلام كان متوقفاً في أمره ، ثم جاءه التثبت من الله تعالى
بأنه غيره ، على ما تقتضيه قصة تميم الداري . وبه تمسك من جزم بأن الدجال
غير ابن الصياد .

وكان الدين يجزمون بأن ابن الصياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم ،
وإلا فالجمع بينهما بعيد جداً . إذ كيف يلتزم أن يكون من كان في حياته
صلى الله عليه وسلم شبه المختلم ويجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وسلم ؟ ،
كيف يكون شيخاً كبيراً مسجوناً في حزيرة ، ويسأل عنه عليه السلام : هل
خرج أم لا ؟ .

قال الخطابي : اختلف السلف في أمر ابن الصياد بعد كبره : وروى أنه
تاب من ذلك القول ومات بالمدينة ، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن
وجهه حتى يراه الناس ، وقيل لهم : اشهدوا ! .

وقال ابن دقيق العيد : إذا أخبر محضرته صلى الله عليه وسلم عن أمر

ليس فيه حكم شرعى ، فهل يكون سكوته صلى الله عليه وسلم دليلاً على مطابقة ما فى الواقع ، كما وقع لعمر فى حلفه على أن ابن الصياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ، ويستند إلى حلف عمر ؟ أم لا يدل ؟ فيه نظر . والأقرب عندي أنه لا يدل . لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ، ولا يكفى فيه عدم تحقق الصحة ، إلا أن يدعى مدّع أنه يكفى فى وجوب اليأس عدم تحقق الصحة ، فيحتاج إلى دليل وهو عاجز عنه . نعم : التقرير يسوغ الحلف على ذلك على غلبة الظن ، لعدم توقف ذلك على العلم .. هـ .

وفال النووي : قال العلماء : قصة ابن الصياد مشكلة ، وأمره مشتبّه ، لكن لا شك أنه دجال من الدحالة . والظاهر أن النبی صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه فى أمره شيء ، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال ، وكان فى ابن الصياد قرائن محتملة . فلذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يقطع فى أمره شيء ، بل قال لعمر : « لا حير لك فى قتله ... الحديث » (١) .

[١] بقى أنه بعد أن تكون الصفات التى أوحى بها إليه صلى الله عليه وسلم تجتمع فى فئ صغير كان الصياد وفى هذا المقيّد فى الجريرة . وأعرب من هذا ما ذكره نعيم بن حماد شيخ البخاري فى كتاب الفتن من أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه عن جماعة منهم شرح بن عبد الله . قالوا جميعاً : إن الدجال ليس بإسان وإنما هو شيطان موثى بسمين حلقة . قيل موثق من عهد سليمان . قال الحافظ ابن حجر بعد نقل ما تقدم : وهذا لا يمكن معه كون ابن الصياد هو الدجال ، ولعل هؤلاء الرواة مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض أهل الكتاب .

ونقل صاحب المنار عن ابن الجوزي أنه قال ^(١) : كان صلى الله عليه وسلم يتكلم بأشياء على سبيل القياس ، وهو دليل معمول به . فكانه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضي قرن واحد ، ومن ثم قال في الدجال : « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حبيجه » فجوز خروج الدجال في حياته الشريفة عليه السلام . قال السيد رشيد ^(٢) -معلقاً على ذلك- : فان الجوزي يرى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقدر في هذه المسائل تقديراً ، إذ لم يوح الله تعالى إليه بأخبارها تفصيلاً .

اجتماعه عليه السلام وأصحابه فيما يكون به الاعتراف للصلاة

روى البخاري ^(٣) عن ابن عمر قال : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحمينون ^(٤) الصلاة ليس ينادى لها ، فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال

[١] في جزء ٩ من تفسير المنار صفحة ٤٦٣ .

[٢] في صفحة ٤٨٩ من نفس الجزء ٩ .

[٣] في الجزء الثاني من كتاب الأذان ، من فتح الباري على البخاري .

[٤] أي يطالبون حينها ويتفرسون في البحث عنه .

بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقاً مثل قرن^(١) اليهود ، فقال عمر : أولاً تسمعون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا بلال اقم فناد بالصلاة » .

وفي رواية عند ابن ماجه أن النبی صلى الله عليه وسلم استشار الناس فيما يجمعهم إلى الصلاة ، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى .

وفي رواية أخرى للبخارى عن أس وعن أنى الشيخ عن خالد - واللفظ لخالد - قال : فقالوا : لو اتخذنا ناقوساً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ذاك للنصارى » ، فقالوا لو اتخذنا بوقاً ؟ فقال : « ذاك لليهود » ، فقالوا : لو رفعنا نارا ؟ فقال : « ذاك للمجوس » .

وصح عند الترمذی وأبى داود وابن ماجه أن النبی صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه للصلاة كيف يجمع الناس لها ؟ فقال بعضهم : انصب راية عند حضور وقت الصلاة ، وذكر بعضهم البوق وبعضهم الناقوس ، فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم ، ورأى رؤيا قصها ، وقال : طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده : فقلت يا عبد الله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟

[١] شىء يفتح فيه مثل المعروف الآن (بالفير) .

قلت ندعو به للصلاة ، فقال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ قلت له : بلى ! . قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر : الله أكبر : أشهد أن لا إله إلا الله . . . إلى آخر الأذان ، فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت ، . فقال : « إنها رؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فأتى عليه ما رأيت فليؤذن به ، فإنه أندى صوتاً منك » ، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به ، وسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته خرج يحمر رداءه فقال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فله الحمد » . قال عياض : فقول عمر في الرواية الأولى : ألا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « يا بلال قم فناد » المراد به الإعلام الخفض محصور وقت الصلاة ، لا خصوص الأذان المشروع آخراً .

وبذلك يجمع بين رواية البخارى ورواية الترمذى ومن معه . قال السهيلي : والحكمة في ابتداء شرع الأذان على لسان غيره صلى الله عليه وسلم التنويه بعلو قدره على لسان غيره صلى الله عليه وسلم ليكون أحق لشأنه .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث والتعليق عليه : وقد نص الأصوليون على أنه يجوز له صلى الله عليه وسلم الاجتهاد فى الأحكام ، والله يقره على ما يشاء .

قال ابن العربي : وفي الحديث دليل على مراعاة المصالح والعمل بها ، وذلك أنه لما شق عليهم التذكير للصلاة فتفوتهم أشغالهم ، والتأخير فيفوتهم وقت الصلاة ، نظروا فيما يحفظ لهم أداء الصلاة دون تعطيل أعمالهم واختلفت في قصة الأذان هذه : هل كانت في السنة الأولى من الهجرة ، أو الثانية ؟ .

اجتهداه مع أصحابه صلى الله عليه وسلم فيما يجلس عليه عند فطبة الجمعة

روى البخارى ^(١) عن سهل بن سعد ، وقد سئل : من أى شيء المنبر ؟ فقال : ما بقى بالناس أعلم مى ، هو من أنل الغابة ^(٢) ، عمله فلان مولى فلانة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية للبخارى أيضاً عن أوى حازم بن دينار ، قال : إن رجلاً أتوا سهل بن سعد الساعدى وقد امتمروا فى المنبر : ممَّ عوده ؟ فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إني لأعرف ممَّ هو ؟ ، ولقد رأيته أول يوم وضع ، وأول يوم جلس عليه صلى الله عليه وسلم . أرسل عليه السلام إلى فلانة - امرأة من الأنصار قد

[١] فى المتج حزه أول باب الصلاة فى السطوح والمبر وفى حره ثاب باب الحطبة على المبر .

[٢] العانة اسم موضع قرب المدينة وراء جبل أحد على بعد ثمانية أميال من جهة الشام وليس بها الآن شجر ولا ررع .

سمها سهل - : « مرى غلامك التجار أن يعمل لى أعواداً أجلس عليهن إذا
كلمت الناس » فأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها ، فأرسلت إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت هاهنا :

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يخطب إلى خشبة ، فلما كثر الناس قيل له : لو كنت جعلت منبراً ! قال :
وكان بالمدينة نحر يقال له ميمون ، فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم أن يعمل له
أعوادا يجلس عليها . . . الحديث .

وأخرج أبو داود عن نافع عن ابن عمر أن تيمما^(١) الدارى قال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم - لما كثر لجه - : ألا نتخذ لك منبراً يحمل عظامك ؟
قال : « بلى » ، فاتخذوا له منبراً .

وروى ابن سعد - فى الطبقات - من حديث أبى هريرة أن النبى صلى
الله عليه وسلم ، كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شق
على ، فقال له ميم الدارى : ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ؟ فشاور
النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذوه .

قال الحافظ ابن حجر فى التعليق على ذلك : وقد علم مما تقدم سبب عمل

[١] تقدم أنه كان نصرانياً وأسلم .

النذر ، وهو أنه : إما كثرة الناس ، وإما زيادة جسمه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ، فصار يشق عليه طول القيام ، فيخطب جالساً كما يستفاد من رواية أبي هريرة المتقدمة ^(١) .

رأى سلمان الفارسي عمل ضئوف حول المدينة في غزوة الأحزاب وأقره صلى الله عليه وسلم على ذلك

نقل الحافظ ابن حجر عن أصحاب المغازي قالوا : قال سلمان الفارسي للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا حندقنا علينا ، فأمر صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق حول المدينة ، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه قبل مجئ المشركين .

صلى بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم العصر قبل غروب الشمس ، وبعضهم بعد الغروب فأقر صلى الله عليه وسلم الجميع بومس قريظة

روى البخاري عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر

[١] وكان عمل النذر سنة ثمان من الهجرة ، وكان من ثلاث درجات .

في الطريق ، فقال بعضهم : لا تصل حتى تأتيها ، وقال بعضهم : بل نصل ! ،
لم يرد منا ذلك . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف أحداً منهم .

وقال ابن إسحاق : لما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق
راحماً إلى المدينة أتاه جبريل الظهر فقال : إن الله يأمرك أن تسير إلى
بني قريظة ، فأمر بلالاً فأذن في الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين
العصر إلا في بني قريظة ... الخ » .

قال الحافظ ابن حجر : وحاصل ما وقع في القصة ، أن بعض الصحابة
حملوا النهي على حقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنهي الثاني - الذي
هنا - على النهي الأول ، وهو النهي عن تأخير الصلاة عن وقتها . والبعض
الأحر حملوا النهي على غير الحقيقة ، وقالوا : إنه كناية عن الحث والاستعجال
والإسراع إلى بني قريظة ، فبادروا إلى امتثال أمره الثاني . وحصوا وقت
الصلاة من ذلك لما تقرر عندهم من تأكيد أمرها ، والحفاظة على أداؤها في
وقتها ، فلا يمتنع أن ينزلوا فيصلوا ، ولا يكون في ذلك منافاة لما أمروا به .

وقال السهيلي : في هذا الحديث من الفقه : أنه لا يعاب على من أخذ
بظاهر حديث أو آية ، ولا على من استنبط من النهي معنى يخصه ، وأن
كل محتلمين في الفروع من المجتهدين مصيب .

رأى صلى الله عليه وسلم عدم الخروج إلى أُمِّهِ^(١) ، ورأى أصحابه
الخروج إليها فنزل على رأيهم

جاء في البخارى ومسلم وأحمد والنسائى ما لخصه ابن كثير فى التاريخ عن
سبب غزوة أحد مما يأتى : قال :

إن أبا سفيان لما وُتِرَ يوم بدر صار يؤلب القبائل على المسلمين حتى حاء فى
شوال من السنة الثالثة الهجرية ونزل بعثين^(٢) على شفير الوادى مقابل
المدينة . فعلم به عليه السلام وأصحابه ، فتحمس للقائه شمان لم يشهدوا بدرأ ،
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ليلة الجمعة رؤيا فلما أصبح قصها على
أصحابه ، فقال : « رأيت البارحة فى منامى بقرأ مذبح ، ورأيت سيفى به فلول
فكرهته ، وهما مصبيتان ، ورأيت أنى فى درع حصينة ، فأولت البقر التى
تذبح نقرأ من أصحابى يقتلون ، والثلث الذى فى سيفى رجلا من أهل بيتى يقتل ،
والدرع الحصينة المدينة ، فامكثوا فى داخل المدينة ، فإن دخل علينا القوم فى
الأزقة قاتلناهم ، وارموا من فوق البيوت » ، فقال الذين لم يشهدوا بدرأ : كنا

[١] وكات واقعة أحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة .

[٢] فى القاموس : عيين بكسر العين ، جبل بأحد .

نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا ، وقرب المسير فتى نقاتلهم إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟ وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو . فلما صلى رسول الله عليه السلام الجمعة وعظ الناس وأمرهم بالجهاد ، ثم انصرف من صلاته إلى بيته ، ودعا بِلَأَمَّتِهِ^(١) فللسها ، ثم أذن في الناس بالخروج فلما رأى ذلك رجال من ذى الرأى قالوا : أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم بالله وما يريد ، ويأتيه الوحى من السماء ، فقالوا : يا رسول الله ! امكث كما أمرتنا ، فقال : « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمة الحرب أن يصعها حتى يقاتل ، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبىتم إلا الخروج ، فعليكم بقوة الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو » .

وروى البخارى^(٢) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى^(٣) إلى أمها اليمامة ،^(٤) أو هجر^(٥) فإذا هى المدينة يثرب ، ورأيت فيها بقرأ وخيراً

[١] اللأمة درع من حديد يلبس على الرأس .

[٢] متح البارى جزء ١٢ (كتاب التيمير ، باب : إذا رأى قرأ يدع) .

[٣] قال النووى : وهل الوهم والاعتقاد . وقال الحافظ ابن حجر : وهل فتحتين أى ظن ، يقال : وهل يهل بالكسر وهلا بالسكون إذا طل شيئاً فتبين خلافه .

[٤] أقلم بينه وبين البحرين عشرة أيام بالإبل قال ياقوت : اليمامة معدودة من مسجد ، وقاعدتها هجر ، فيها طهر مسيلة الكذاب .

[٥] هجر : بفتحين بلد من بلاد البحرين ومن مساكن عمدة القيس . وقال ياقوت : هجر من بلاد اليمن وقال ابن حجر : وهذا أولى بالتردد بينها وبين اليمامة لأن اليمامة بين مكة واليمن .

فإذا هم المؤمنون يوم أُحُد ، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير .

(وهذا الحديث - الذى رواه البخارى - يدل على أن اجتهاده صلى الله

عليه وسلم امتد حتى شمل تعبير الرؤيا ، وأنه ظهر على خلاف ما ظن .

اجتهاد أصحابه صلى الله عليه وسلم بحضرتة فى قتال أهل الطائف
واقصره صلى الله عليه وسلم لهم

نقل صاحب زاد المعاد^(١) عن ابن سعد قال : لما طال حصاره صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف وهم محصنون بداخله ، لا يستطيع أحد اقتحامه عليهم ، استشار عليه السلام نوفل بن معاوية الديلى ، فقال : « ما ترى » ؟ قال نوفل : ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : رحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال عليه السلام : « فاغدوا على القتال » فغدوا فأصابوا المسلمين جراحات ، فقال صلى الله عليه

[١] انظر زاد المعاد فى حصار الطائف .

وسلم : « إنا قافلون غداً إن شاء الله » فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك^(١) .

وبما جاء من هذا النوع ما رواه^(٢) مسلم في صحيحه عن أس بن مالك : أن الرجل^(٣) كان يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات^(٤) من أرضه حتى فتحت عليه السلام قريظة والنصير ، فجعل بعد ذلك يرد عليه^(٥) ما كان أعطاه ، قال أس : وإن أهمل أمرى أن أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسأله ما كان أعطوه أو بعصه ، وكان نبي الله عليه السلام قد أعطاه أم أيمن^(٦) . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وقالت : والله لا نعطيكهن وقد أعطايهن - أي رسول الله عليه السلام - فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أم أيمن ! أتركيه ولك كذا وكذا » وتقول : كلا ! والذى لا إله إلا هو ، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول : « لك كذا وكذا » حتى أعطاه عشرة أمثاله أو قريباً من عشرة أمثاله .

[١] ومن هذا يعلم أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعرفون أنه عليه السلام كان يجهد فيقول الرأي من نفسه ، لاعت وحى فكانوا يناقشون ويتجرون . وقد يطهر فما بعد أهمهم محطون أو مصيون .

[٢] مسلم نسخة المتن المبرى جزء ٥ صفحة ١٦٢ في كتاب الجهاد والسير .

[٣] أى من أهل المدينة من الأنصار .

[٤] أى على سبيل العارية كما سيأتى يتمتع بثمارها ويردها إذا استمتع بها .

[٥] أى على الرجل من الأنصار .

[٦] أم أيمن كانت جارية لعبد الله بن عبد المطلب والده عليه السلام وكانت من الحبشة . ولما ولد صلى الله عليه وسلم كانت تحضنه .

وفي رواية أخرى لمسلم عن أنس أيضاً بلفظ : لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار^(١) فقامهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ، ويكفونهم العمل والثبونة ، وكانت أمي - أم أنس وتدعى أم سليم - أعطت رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاقا^(٢) لها ، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولانته أم أسامة بن زيد . فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من قتال أهل حبير وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منأثمهم التي كانوا منعوهم ، فرد صلى الله عليه وسلم إلى أمي عذاقها ، وأعطى أم أيمن مكاهن من حائطه .

قال النووي في شرحه على مسلم : قال العلماء : لما قدم المهاجرون آثمهم الأنصار منأثم^(٣) من أشجارهم فمنهم من قبلها منيعة محصنة^(٤) ومنهم من قبلها بشرط أن يكون له نصف الثمار فقط ، نظير أن يعمل في خدمة الأرض والشجر ولم تطب نفسه أن يقبلها منيعة محصنة كراهة أن يكون كالا على غيره . فلما

[١] أراد بالعقار هنا البعل . قال الزجاج : العقار كل ماله أصل .

[٢] العذاق جمع عداق على وزن حل وحبال ومعناه محلات .

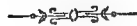
[٣] المنأثم جمع منيعة على وزن دأثم وديعة هي كل ما منحت له غيرك ليبدع بعلته ثم رده إليك عند استقبائه عنه ، منحة الإبل والعم ينتفع بلسها ووبرها وصوفها ، ومنحة البعل ينتفع بشعرها .

[٤] أي ينتفع بكل ثمارها لنفسه .

فنبحت عليهم حير استغنى المهاجرون بأصباؤهم فيها عن تلك المنافع فردوها إلى الأنصار . وقد كان الأنصار أعطوا المهاجرين هذه الأشجار يتصرفون فيها كما يشاءون من أكل وإيثار للغير وصدقة دون البيع ، ولهذا أثر النبي عليه السلام أم أيمن . ولو كانت إباحته له خاصة لما أباحها لغيره . ولما كانت رفاة الأشجار لأصحابها صح إرجاعها لهم ، لأنها لو كانت هبة للرفاء لما جاز الرجوع فيها .

أشار عليه صلى الله عليه وسلم أصحابه بأخذ الخاتم فأنجزه

روى البخارى ^(١) عن أس بن مالك قال : لما أراد النبي عليه السلام أن يكتب إلى الروم قيل له : إنهم لا يقرءون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من قصة فكاأى أنظر إلى بياضه في يده ونقش عليه : محمد رسول الله .



[١] في كتاب الحياذ - باب دعوة اليهود والنصارى . -

خاتمه

الآن قد ذكرنا من الأمثلة والشواهد ما يدل على وقوع الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم منوعاً حسب طبيعة الإنسان ؛ فأيناه اجتهاد وعبر عن اجتهاده بالقول مرة ، والعمل والفعل أخرى ، وإقرار رأى بعض صحابته أو عدم إقراره إياه ثالثة .

والاجتهاد منه إذن مؤكد الوقوع ، سواء أكان عن طريق القرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

وموضوع اجتهاده عليه السلام لم يكن خاصاً بموضوع معين ولا بوقت ومكان ؛ بل تناول عدة أمور من واقع حياته وحياة المؤمنين معه ، وما لم يكن من واقع حياته وحياة المؤمنين معه كذلك - كما في حديث نسل المسوخ^(١) وحديث عذاب القبر^(٢) - وامتد إلى تعبير الرؤيا^(٣) بل رأى بعض العلماء أنه تناول فهم القرآن وبحن لا نقر ذلك الرأى لما فيه من الخطورة^(٤) ، وحدث في أزمنة متعددة وأمكنة مختلفة .

كما لم يكن رأيه عليه السلام فيما اجتهد فيه ، يمثل الصواب دائماً ولا محل رضا الله تعالى عنه ، دائماً كذلك ، كما أن تصويب الخطأ في رأيه من المولى

[١] ص ٦٠ ، ٦١ من هذا الكتاب .

[٢] ص ٦٨ ، ٦٩ من المصدر السابق .

[٣] ص ١٥٩ من المصدر السابق .

[٤] ص ١١٨ ، ١٢٦ من المصدر السابق .

جل شأنه ، أو منه عليه السلام أو من صحابته ، لم يكن دائماً أبداً عقب ظهور الرأى مباشرة ؛ بل قد كشفت الأيام عن خطأ هذا الرأى فى بعض الأحيان ، أو كان سبباً فى أن عاتبه عليه مولاة جل شأنه ، أو وقع التصويب بعد فترة زمنية تقصر وتطول ، مما لا يدع شكاً فى أن الرسول بشر يجوز عليه — عدا ما حصه به الله — ما يجوز على أى بشر آخر .

فالفصول الثلاثة من الباب الثانى تصور فى جملتها تنوع اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى تصور وقوع اجتهاد منه ، وفى غير أمر واحد وغير زمان واحد ، وغير مكان واحد .

وفىما أبداه عليه السلام من رأى فى تلقيح الفخل^(١) أظهرت الأيام عدم نفعه لمن أخذوا به — كما لم يحى وحى بشأنه — . والله سبحانه وتعالى إذ يوافقه على ما رأى وطلب^(٢) بقوله : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا نُوَلِّينَاكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » ، لا يوافقه^(٣) على ما رأى وطلب فى ناحية أخرى ، كما جاء فى قوله : « قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . . . » ؛ بل قد يعاتبه^(٤) — وأحياناً يشتد

[١] ص ١٠٦ من المصدر السابق .

[٢] ص ٧١ من المصدر نفسه .

[٣] ص ٧٣ من المصدر السابق .

[٤] صفحات : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٠٣ من المصدر السابق .

في العذاب - على ما رأى عليه السلام مثل ما جاء في قوله تعالى : « وَتَحْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » ، وفي قوله : « فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ تَعْصُ مَا يُوحَى
إِلَيْكَ ... الآية » ، وفي قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَمْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ لَتَعْتَرِيَّ عَلَيْنَا غَيْرُهُ ... الآية » ، وفي قوله : « عَمَّا اللَّهُ عَذَكَ لِمَ
أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا . » ، وفي قوله : « لَنْسَ لَكَ مِنْ
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... » .

وفيا نقل عنه عليه السلام تعديلا لرأيه الأول في حديث التَّحْرِيقِ بِالنَّارِ^(١)
- في رواية البخارى عن أبى هريرة - ، وفيا أوحى إليه من الله جل شأنه
في أمر عذاب القبر^(٢) - في رواية مسلم عن عائشة - ، وفيا ذكره تعالى اسمه
إجابة لما رأى وطلب^(٣) في شأن القبلة - في سورة البقرة - يدل على وجود
فترة زمنية لا يعرف مقدارها على وجه الدقة بين الرأى ومجىء الصواب به أو
بين الطلب وإجابته .

- ١ - فالاجتهاد جاز على الرسول صلوات الله عليه إذن ، لأنه وقع منه .
- ٢ - وموضوعه مننوع ، دبنى أو دنيوى ، مغيب أو مشاهد ، كما يؤخذ
من الروايات المذكورة .

[١] ص ٨٢ من المصدر السابق .

[٢] ص ٦٨ من المصدر السابق .

[٣] ص ٧١ من المصدر السابق .

٣ — وليس بلازم أن يكون رأيه عن اجتهاد صواباً على الدوام ، كما رأينا ذلك فيما مضى غير مرة ،

٤ — وليس بلازم أيضاً أن يقع التصحيح للرأى الخطأ فوراً ،

٥ — كما يجوز أن لا يرد له تصحيح ما على الإطلاق — كما في حديث تأييد النخل — .

٦ — كما يحتمل أن يكون سكوته عليه السلام على رأى بعض صحابته موافقة عليه أو انتظاراً لما يأتي به الوحي — كما في حديث ابن الصياد —

ونحن لا نهدف في كتابنا هذا إلا إلى المحافظة على مقام الألوهية من أن يقنحمه أو يدنو منه أحد من خلق الله مهما عظمت منزلته ، كما عمل لذلك خاتم الأنبياء وسيد الأبرار سينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فحمد عليه السلام هو ابن عبد الله بن عبد المطلب من قريش ، وهو رسول الله . هو إنسان أوحى إليه ، لم يخرج الوحي عن إنسانيته ، ولم تعد طبيعته الإنسانية إلى دائرة ما أوحى به إليه . وهو المنزل عليه :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُسْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »
« صدق الله العظيم »
والحمد لله رب العالمين

فهرس

الصفحة

الإهداء	٣
إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه
مقدمة	٥
عناية الإسلام بدعوة التوحيد ، وأمانة ذلك على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، تأكيد الرسول الكريم للمؤمنين أنه بشر مثلهم ومقتنه أن يطرى منهم كما كان يطرى ابن مريم من النصارى
الباب الأول	١٧
في اجتهاد الأنبياء
الفصل الأول	١٩
مظاهر الإنسانية فى الرسول ، الاجتهاد واحد من هذه المظاهر

الصفحة

٢٩ الفصل الثاني

رأى بعض العلماء فى اجتهاد الأنبياء :

٢٩ الجبائى لا يرى جواز الاجتهاد على الأنبياء ، دليله

. ومناقشة هذا الدليل

آراء المجوزين :

٣١ (ا) رأى ابن حزم الأندلسى

٣٤ (ب) « ابن تيمية

٤١ (ح) « القاضى عياض

٤٤ (د) « ابن حلدون

٤٦ (هـ) « السكال بن الهمام

٥٢ الفصل الثالث

فى وقوع الاجتهاد من الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه

وسلم وبعض أمثلة على ذلك :

٥٥ الباب الثانى

فى اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم

الصفحة

الفصل الأول ٥٧

- فيما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صورة
القول تمهيد . . . فيما كان موضوع الاجتهاد ، وأوصافه ٥٧
- (أ) ما بدا من اجتهاده في صورة الظن ، وبعض
الأحاديث الدالة على ذلك
- (ب) ما بدا من اجتهاده في صورة القطع ، وبعض
الروايات المؤيدة لذلك
- (ج) ما بدا من اجتهاده في صورة التمسك ، ومظاهر
ذلك في ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم . . .
- (د) ما بدا من اجتهاده في صورة هم ولم يفعل ، وآية
ذلك فيما ترويه الكتب الصحيحة
- (هـ) ما بدا من اجتهاده في صورة الطلب ، وما يرويه
الشيخان ويذكره القرآن الكريم فيه . .
- (و) ما بدا من اجتهاده في صورة الإذن ، ومظاهر
ذلك في السنة وكتاب الله

الصفحة

(ز) ما بدا من اجتهاده في صورة الدعاء . . . ١٠٢

(ح) » » تفضيل الترك على العمل ١٠٦

(ط) » » النهي العام . . . ١١٢

(ى) » » الاستغفار لبعض المناقير ١١٤

الفصل الثاني . . . ١٢٧

فيما بدا من اجتهاده في صورة العمل ، وبعض أمثلة

على ذلك :

(ا) صلاته على عبد الله بن أبي ابن سلول ١٢٧

(ب) أحذه الفداء من أسرى بدر . . . ١٢٨

(ح) عبوسه في وجه ابن أم مكتوم الأعمى . . . ١٣١

(د) سوقه الهدى . . . ١٣٤

(هـ) دحوله في جوف الكعبة . . . ١٣٥

(و) كذاته شروط الصلح مع قائد غطفان يوم ١٣٦

الخنندق بإذنه . . .

الفصل الثالث . . . ١٣٨

فيما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صورة

الصححة

- الإقرار أو عدم الإقرار لأراء أصحابه رضوان الله عليهم
- (ا) ما حصل يوم بدر ، وموافقته صلى الله عليه وسلم ١٣٨
لرأى الحباب بن المنذر
- (ب) ما حصل في عزوة حنين ، وموافقته صلى الله عليه وسلم ١٣٩
عليه وسلم لرأى أئى بكر رضى الله عنه . . .
- (ح) إقراره عليه السلام من رقى بالفاحة على أخذ الأجر ١٤١
- (د) عدم إقراره صلى الله عليه وسلم من صلى بصلاته ١٤٣
في فيام رمضان
- (هـ) سكوه عليه السلام على حلف عمر رضى الله عنه ١٤٥
في قصة ابن الصياد
- (و) مشاركته عليه السلام أصحابه الاجتهاد فيما يكون ١٥٠
به الاعلام للصلاة
- (ز) مشاركته عليه السلام أصحابه الاجتهاد فيما يجلس ١٥٣
عليه عند خطبة الجمعة
- (ح) إقراره صلى الله عليه وسلم رأى سلمان العارسي ١٥٥
عمل خندق في غروة الأحزاب

- ٥ (ط) إقراره صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله
عنه صلاتهم العصر يوم قريظة
- ٧ (ي) نزوله عليه السلام على رأى أصحابه رضوان الله
عنه الخروج إلى أحد
- ٩ (ك) إقراره صلى الله عليه وسلم اجتهد أصحابه
في قتال أهل الطائف
- ٣ خاتمة
- ٩ الفهرس
- ٥ جدول الخطأ والصواب
- والحمد لله أولاً وآخراً

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	السطر
بالإمامة	الإمامة	٣٧	١٧
وأبى	فأبى	٦١	٥
كما لا فى حقه	كما لا فى حقه	٧٥	١٠
(العزم والهم)	الهم	٧٨	١٣
فى صورة (عزم)	فى صورة (هم)	٨٠	٥
فى صورة (الزم)	فى صورة (الهم)	٨٢	٦
ثم آتيناها	ثم أتيناها	٨٢	١٣
يفتصحوها	يفتصحوها	٩٤	٤
يتدرج	يستدرج	٩٧	٦
المألوف فى	المألوف من	٩٧	٨
صحيحهما	صحيحهما	٩٩	٩
تعديلا	تعديل	١٠٠	٥

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٠	١٣	فساعدتها	وأسعدتها
١٠١	١١	كان أى	كان أى
١١٥	٨	إنه مات منافق	إنه منافق
١١٥	١٧	هذين الجزأين	هذين الخبرين ^(١)
١١٥	١٩	في الجزء الأول	في الخبر الأول
١٣٦	١٢	تصفه	تصنعه
١٣٦	١٣	أصفه	أصنعه

(١) المراد بالخبرين حديث ابن عمر وحديث ابن عباس